الفهرس

استهلال 7

الواقفون خلف أسوار الأنا 9

لهذا تبدّل الأفعى جلدها 21

ربما تكون الفنتازيا قمة الهرم 31

وفجأة ظهر الشبح وكأنه القمر 37

لماذا تخلّى سندباد عن خارطة الكنز ؟ 49

هل للخيال صورة في المرآة ؟ 61

أدرت له ظهري فوجدته أمامي 67

حيَّ على الانقلاب 71

الرقص قرب شجرة آدم 85

تثوير السر الأعظم 99

النظر من ثقب الباب 117

العقول حين تلعب جر الحبل 123

اقفز لتخرج من شقوق الطين 137

المراجع والمصادر 141

استهلال

«ينبغي على من يحاول التفكير بشكل سليم معرفة التحرر من عادة تقبّل كلّ شيء على أنه صحيح كما ينبغي عليه وبشكل متساوٍ التفكير باحتمال وجود آراء مخالفة كما ينبغي عليه التحرر من الإيمان المسبق»[1]

المفكر الإيطالي «جوردانو برونو»

قبل أن أشرع في الكتابة راودتني سلسلة من الأفكار والرؤى، تغادرني حينًا وتراودوني أحيانًا أخرى، حتى أقلقتني، فلم أجد بدّاً من التجاوب معها، والاستجابة لدعوتها، فبدأت أنزلها على الورق، وكان الأصل أن تكون سلسلة مقالات حول مختلف القضايا أو المسائل التي أهتم بها، وبعد أن بدأت الكتابة بالفعل وقطعت شوطًا لا بأس به، شدّتني عبارة قرأتها في موقع «ويكيبديا» على الانترنت وهي: «التفكير خارج الصندوق» فكان أن أسرتني بساطتها ووجدت لها فيّ وقعًا مميزًا كونها تعبيرًا جامعًا مانعًا عن معظم الأمواج المتلاطمة في رأسي من الأفكار. وهكذا ومن دون سابق تخطيط وجدتني أغيّر مساري في الكتابة ليكون متساوقًا مع هذه الرؤية الجديدة. ومعها رأيتني أنزع نحو التحرر من القيود والضوابط والمتلازمات، فتركت للأفكار

أن تنساب من أناملي كما تشتهي وتحب، آملاً أن تجد ببساطتها وتلقائيتها الصدى المقبول لدى المتلقّي، وقد قيل: ما يخرج من اللسان فلا يتجاوز الآذان وما يخرج من القلب فلا يستقر إلا في القلب، وهذا ما أرجوه. فما «التفكير خارج الصندوق»؟

إنّ التفكير المعتاد يصطلح عليه في بعض الأوساط المعرفية بـ «داخل الصندوق» ، لكونه المألوف أو المتعارف عليه، وتأتي عبارة «التفكير خارج الصندوق» لتدلّ على النماذج التي تكسر القيود المألوفة في جميع المجالات المعرفية والعلمية، ولا تتردد في تجاوز الخطوط الحمراء إن اقتضت الضرورة لذلك طمعًا في الوصول للمقصود .

على هذه الأرضية حاولت أن أقف ، ومنها جازفت بالانطلاق مُبحرًا بين لُجج الرؤى الفكرية والفلسفية والعلمية فضلا عن تحقيقات الصوفية.. على أمل أن تُولَد صفحة جديدة مفيدة وممتعة في كتاب الحياة ، قبل أن يُطوى مع السماء كطي السجل للكتب .

نضال فاضل البغدادي
2010/2/28م

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 11 .

الواقفون خلف أسوار الأنا

إن الطلب من البشر التنازل عن أفكارهم الخاصة والخضوع إلى أفكار الآخرين وتعيين أشخاص جهلاء علمياً أو فنياً حكاماً للناس العلميين وتفويضهم سلطة التعامل معهم كما يشاؤون إن كل هذه الأشياء المستحدثة تؤدي إلى موت الجمهورية وتهديم صرح الدولة] [1]

غاليلو غاليلي

قرأت نصًا للعالم الكيمياوي السويدي «جاكوب برتسيليوس» يوضح فيه السبب الذي يجعل البعض يقعون في فخ النظر بالعين العوراء، جاء فيه: «إنّ التعود على رأي محدود غالبًا ما يولد اعتقادًا راسخًا بصحته، وذلك يغطّي أكثر الثغرات في هذا الرأي ويسلب منّا قابلية تقبّل البراهين المناقضة له »[2].

على سبيل المثال، نجد في الفيزياء أنّ بعض العلماء قد تقولبوا على مدى ثلاثة قرون تقريبًا بعد نيوتن في نموذج فكري معين «صندوق» حتى أنّ اللورد كلفن قال في عام 1900 عبارة مشهورة وهي: «لم يعد هناك

1- د. أسامة نعمان ـ كتاب أفكار علمية ـ ص 24 .

2- المصدر نفس ـ ص 9 .

المزيد لاكتشافه في الفيزياء الآن، ليس هناك إلا المزيد والمزيد من الدقة في القياسات»[1]. وبعد ذلك بخمسة أعوام ، جاء من يفكر خارج الصندوق وهو «ألبرت أينشتاين» فأصدر بحثه حول نظرية النسبية الخاصة، التي تحدّت بتحدي أبسط القواعد التي خطتها ميكانيكا نيوتن، التي جرى استخدامها لوصف القوى والحركة على مدى أكثر من ثلاثمائة عام، وفي هذه الحالة، قلّص النموذج الفكري الجديد النموذج القديم ليناسب حالة خاصة.

وقبل ذلك، في العام 1875م قدّم رئيس قسم براءات الاختراع في الولايات المتحدة استقالته ونصح الإدارة بإقفال هذا المكتب لأنه كان مقتنعًا تمامًا بأنه لم يعد هناك شيئ يُخترع!.

اللطيف أن أينشتاين وهو عالم مختص في الرياضيات والفيزياء، تراه يشخّص السبب وراء ضيق أفق بعض العلماء ممن يفترض بهم أن يكونوا نجومًا مضيئة في ليل الجهل، وكأنّه مختصّ في علم النفس أو أحد حكماء الصوفية، فيقول ـ ما أروع قوله ـ: «إن التقييم الحقيقي للإنسان يكمن في درجة فهمه لكيفية تحرره من «أنا»»[2].

إن «الأنا» وراء سخرية العلماء من ليوناردو دافينشي في القرن الخامس عشر حين رسم تصميماً للآلة تطير، نظروا إلى ذلك التصميم ثم انفجروا ضاحكين، قال أحدهم وهو يضع غليونه في فمه ناطقا باسم الجميع : انس الأمر يا صديقنا العزيز.

1- موسوعة ويكيبديا على النت .

2- د. أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص7 .

لم يُفاجأ دافنشي كثيرًا من ردة فعلهم تلك، لكنه هز رأسه مستفسرًا عن السبب، فكان أن انفجر دافنشي ضاحكًا بعد أن سمعه.

قال صاحب الغليون بعد أن وضع إبهاميه في جيوب سترته الداخلية الصغيرة، وقد شمخ بأنفه عاليًا: لو كان الطيران ممكنًا لكنا نحن أوّل من عرف بذلك.

كان ذلك في القرن السادس عشر، وبعد ذلك بثلاث قرون وتحديدا في العام 1902 م لقي الكونت «فرديناند فون زيبلين» ذات السخرية من المهندسين الألمان عندما أعلن عن اختراعه لـ «المنطاد» كوسيلة للنقل الجوي قابل للتوجيه.

خلال ذلك كان هناك أخوان قد قطعا شوطًا لا بأس به في البحث عن وسيلة للطيران تعتمد على جسم أثقل من الهواء.

وقف الأخ الأصغر «أورفيل رايت» بذلك الوجه الذي تميز بالشوارب الأمريكية الأنيقة ليحدّث أخاه الأكبر «ويلبر رايت» الذي كان خلافا لأخيه يحلق شواربه وقد امتدت صلعته إلى مؤخرة رأسه، ليقول له: أنا واثق بأننا سننجح هذه المرة.

قال وليبر: وأنا كذلك.

أورفيل: هل تذكر يا أخي، منذ متى ونحن نسعى لتحقيق هذا الحلم؟

وليبر: وكيف أنسى ذلك.

كان عملهما كصنّاع وميكانيكيين وفنيّين للدراجات الهوائية قد الهمهما كثيرًا.

أورفيل: ما يحزنني فعلا، أن صحفنا التي تسعى وراء أتفه الأخبار قد

تجاهلت دعوتنا لحضور هذه التجربة ..

وليبر: حسنًا يا أخي فلنفعلها.

وفي صباح ذلك اليوم من شتاء 1903م، صرخ «وليبر» في أذن أخيه «أورفيل»: كم بلغ الوقت؟

وليبر وهو ينظر في ساعة بيده: لقد تجاوزنا حاجز الساعة. وهكذا كانت أطول فترة طيران حققاها الأخوان رايت هي «75 دقيقة» على ارتفاع «100 متر» بمحرك دافع أثقل من جسم الإنسان، وبذلك مهَّدا لدخول قرن الطيران من باب واسع.

وبالرغم من ذلك كلّه، فقد استمر المتصندقون يتجاهلون هذا الحدث التاريخي فعلّقت مجلة «ساينتيفك أمريكان العلمية» على هذا الإنجاز بأنه خدعة وهمية ! ولم يكن شأن بقية الصحف الأمريكية كالنيويورك تايمز والنيويورك هيرالد وغيرها بأفضل حال منها، وقد كانت ردة فعل الصحف هذه انعكاسًا لرد الفعل الرسمي السلبي بشأن طيران الأخوين رايت، فقيادة الجيش الأمريكي، والأكاديميات والجامعات المختلفة، ورجال العلم البارزين، بمن فيهم البروفيسور في علم الرياضيات والفضاء، السيد «سيمون نيوكمب» وغيره من العلماء. جميعهم سخروا من الأخوين رايت، وقلّلوا من شأن هذا الحدث العظيم. جميعهم علّقوا بصوت واحد: «إنه من المستحيل علميًا للمحركات الثقيلة أن تطير»!.. ولمدّة خمس سنوات كاملة، رفض المسؤلون في البيت الأبيض تصديق أنّ آلة ميكانيكية أثقل من الهواء استطاعت الطيران!.

أليس هذا غريبًا فعلًا، أن تخالف العقول الجبارة الواقع الملموس، ليس

لشيء إلا لأنه يخالف المألوف، أو أنه لا ينسجم مع المستوى العقلي لذلك العصر؟

بعد تلك السنوات الخمس اضطر الأمريكان للاعتراف لإنجاز، كما اضطر الألمان لرفع القبعات لمناطيد زيبلين التي راحت تجوب السماء وتجتاز المحيط الأطلسي ناقلة الركاب من قارة إلى أخرى بعد أن منعت الأنا كبار رجالاتهم من التصديق بها أولاً.

في الخمسينيات من القرن الماضي ، صرّح أحد الفيزيائيين المرموقين في جامعة كامبريدج البريطانية بأن الكلام عن السفر إلى الفضاء هو كلام فارغ ، ليس له صلة بالواقع الحقيقي، بعد هذا التصريح بثمانية عشر شهرًا حلّق القمر الروسي سبوتنك في الفضاء الخارجي، فأحدث ضجّة كبيرة أدت إلى إحراج الكثير من رجال العلم، واضطرّت المؤسسات العلمية الغربية، المصدومة بشدّة، إلى تغيير مناهجها التعليمية القديمة في المدارس وأسست منهجًا علميًا يتعامل مع الواقع العلمي الجديد، وقد فقد الكثير من الأكاديميين المرموقين وظائفهم ومناصبهم خلال هذه النقلة العلمية النوعية!

صدق الصوفية حين قالوا: لكل شيء آفة وآفة العلم رؤية النفس[1].

وفي القرآن الكريم، أول من حجبته الأنا عن رؤية العلم والمعرفة والحقائق هو إبليس: **﴿قَالَ مَا مَنَعَكَ إلا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾**[2].

1- الشعراني ـ لطائف المنن والأخلاق ـ ج 2 ص 54 .

2- الأعراف : 12 .

لقد وقع رئيس المهندسين في مكتب البريد البريطاني «وليام بيرس» في فخ هذا الصندوق الذي وقع فيه إبليس، فقد نسب إليه في إحدى المناسبات أنه قال إن مصباح أديسون الكهربائي هو عبارة عن فكرة حمقاء تمامًا !..

وكذلك فعل العديد من البروفسورات المرموقين الذين عرفوا أديسون، بمن فيهم البروفيسور «هنري مورتون»، حيث علّقوا على فكرة المصباح الكهربائي، قبل عرضه أمام الناس بقليل، قائلين: «باسم العلم.. نصرّح بأن تجارب أديسون... هي عملية احتيال تهدف لخداع الجماهير».

كل ذلك لم يمنعه أو يثنيه عن مواصلة طريق الاختراع والابتكار إلى حدّ أجبر الكونغرس في عام 1928م على منحه الميدالية الذهبية. كانت فلسفة أديسون في الاختراع بسيطة جدًّا يقول عنها بدماثته المعهودة: «لكي تخترع أنت بحاجة إلى مخيلة جيدة وكومة خردة »[1]، لم يقل الشهادات أو المناصب أو الرتب أو السمعة أو ما شابه، بل المخيلة والمواد البسيطة.

في أحد أيام حزيران من عام 1877 حمل توماس أديسون مخططًا متسخًا بالدهون قذر المظهر، وقدّمه إلى الميكانيكي السويسري كرونيسي، وطلب منه أن ينفّذه، انحنى السويسري على المخطط ولم يكن سوى قُمع واحدٍ وأبرة وذراع ومقبض دوّار متصل بها، رفع رأسه وقال له: ما هذا؟

قال: إنه جهازي الجديد الغرامافون

كرونسكي: وما هو الغرامافون؟

شرح له أديسون بأنه جهاز يُسجّل الأصوات، لم يصدق الميكانيكي ما

1- موسوعة ويكيبديا على النت .

سمع ، ونظر إلى أديسون تلك النظرات التي تعبّر عن الارتياب والشك ليس في الجهاز فحسب بل في سلامة عقل المخترع نفسه .

قال أديسون: هل تراهن على علبة سكائر فاخرة أنني سأتمكن بواسطة هذا الجهاز من تسجيل صوتك وإذاعته؟

قال الميكانيكي: نعم أراهن على عدم تمكنك من صنع هذا الشيء من هذه الخردة ، من الأفضل أن تذهب لشراء علبة السكائر لي ولا تضيّع الوقت.

ضحك أديسون وقال: إذن ابدأ العمل وفق المخطط الذي أمامك وسنرى من سيضطر لشرائها.

وبالفعل أجهد الميكانيكي نفسه شهرًا كاملاً لتنفيذ مخطط أديسون، وفي الموعد المقرر لاختبار الجهاز استوى أديسون الذي لم يكن قد تجاوز الثلاثين من عمره على الجهاز، وقرّب فمه من القمع، وأنشد بصوته الأجش أغنية شعبية كانت ذائعة حينذاك، وأضاف ضحكة إلى آخر الأغنية بعد ذاك مكث أديسون قليلًا ثم أدار ذراع الجهاز وقرّب أذنه التي لم تكن تسمع جيدًا من القمع وسمع الجهاز وهو يردد ذات الأغنية ثم الضحكة العالية.

كان من المفترض أن يتلقّف المجمع العلمي هذا الاختراع بأذرع مفتوحة، لكن علماء الأكاديمية الفرنسية للعلوم، علّقوا بعد سماعهم الآلة تطلق الأصوات، قائلين: «إنها عملية خداع واضحة، فلا يمكن للآلة أن تتكلّم، لا بد من أن الأصوات تخرج من فمه «أي أديسون» بطريقة بارعة لا يمكن ملاحظتها».

كان الاسكتلندي «جون لوجي بيرد» يرفض الإصغاء إلى أصدقائه

الذين حذروه من الاستمرار في إجراء التجارب باستخدام الأشعة تحت الحمراء، لكن ذلك القادم من أسرة فقيرة لم يلتفت إليهم واستمر في عمله حتى اخترع جهاز التلفزيون الذي دفع حياته ثمنا له حياته بسبب تلك الأشعة ، وماذا كان موقف رجال العلم؟ شكّكوا فيه وهاجموه بشراسة أثناء عمله، وعلّقوا على فكرته قائلين: «إنّ فكرة نقل الصورة عبر الأثير هي عبارة عن ترّهات وسخافات معيبة» .

كل ذلك ليس لشيء إلا لأن المخترع ليس واحدًا منهم، إنّهم يعتقدون بأنهم بوابة العقول للعلم، كما يعتقد السياسيون بأنهم بوابة الوطنية للشعوب، وأيضًا كما يعتقد بعض رجال الدين المتعصّبين المغالين ذوي الغلظة بأنهم بوابة الناس للإيمان.

***

يقول «باتون يفجيني»: إنّ من الضروري أن لا ننغلق على أنفسنا، بل ينبغي علينا أن نراقب بانتباه حركة العلم والتكنولوجيا العالمية من أجل اكتساب الأفكار السليمة ونقدها وهضمها وتحويلها وإغنائها [1].

هكذا يفترض بالعلماء وطلاب العلم على حدّ سواء، أن يكون خط السير الذي يتحركون عليه إذا ما أرادوا أن يصبحوا خارج صفحات التاريخ كله وهم يظنون أنهم عنوان الكتاب المحفور بماء الذهب على الغلاف .

من الكتب القليلة التي خلّفت أثرًا نوعيًا في حياتي كتاب «مهزلة العقل البشري» للدكتور علي الوردي، الذي أثرى فيه علم الاجتماع بمادته التي

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 15 .

فصلت القول في أسباب ومسببات الوقوع في النظرة أحادية الاتجاه، إنه فعلا كتاب جدير بأن يقرأ، وأنا أنصح به لمن أراد أن يتبين السبب الذي وقعت من جرائه البشرية في بئر عميق حجّم مساحة الرؤية والإدراك الإنساني إلى أبعد الحدود.

من اللطائف التي ذكرها في هذا الكتاب: أن فارسين رومانيين وقفا في اتجاهين متقابلين وأمامهما تمثال، وكل منهما يرى جهة واحدة من التمثال، وكان أحدهما يصرّ على أن لون التمثال أسود في حين كان يصرّ الفارس الثاني على أن التمثال لونه أبيض حتى اقتتلا فيما بينهما، وقتل أحدهما الآخر، والحال أن كلّ وجه من أوجه ذلك التمثال كان مصبوغا بلون مختلف، وكل واحد منهما كان يقول الحق ولكن من جهته، ولو تنازلا وتحرك كلّ منهما إلى جهة صاحبة لرأى كلّ منهما أنه على حق وأن صاحبه على حق أيضًا، وهذا شأن الحقيقة في عموم العلوم والمعارف والحياة بشكل عام لا تنكشف إلا لمن يتنازلون ليروا الوجه الآخر.

إذن: الحق ما تراه والحقيقة ما تراه أنت، وما يراه سواك. فإذا كنت على حق، فاسع لأن تكون على حق، وللحقيقة وجوه ووجوه.

في العام 1608م ظهر ألماني يدعى «ليبرشيه» اخترع جهازًا مقرّبًا «منظارًا» مؤلّفًا من عدستين ، فأخذه منه الإيطالي «غاليليو» وطوّره حتى صنع ما نعرفه اليوم بالتلسكوب، ووجد من خلاله أنّ القمر كرويّ الشكل وليس طبقًا فضّيًا، لكن البروفيسور المسؤول عن جامعة «بادوا» رفض حتى النظر في ذلك الجهاز، وادعى بأنه يمثّل هرطقة علمية !.

إنّ من يقفون على حدود الحق ، تتحجم معرفتهم، وإن حاولوا أن يفرضوا معرفتهم على غيرهم أو يُقْصُوا غيرهم عن الرؤية بغير منظارهم فإنهم يحكمون على أنفسهم بالسجن المؤبد داخل صندوق الأسلاف.

إنّ الوعي العلمي كما يرى الفيزيائي «يان فرينكل» يتنازعه دوما

«اتجاهان متناقضان: الاتجاه التقدمي أو الثوري نحو اكتشاف حقائق جديدة، والاتجاه المحافظ الرجعي الذي يقود هذه الحقائق إلى مفاهيم معروفة ومتداولة، أي أنه يفسّرها في إطار المخطط القديم»[1].

إنّ الأفكار الجديدة تُمثّل بالنسبة للمنهج العلمي السائد، نظرة شاذّة، ثورية، قد تقلب المنطق المعروف رأسًا على عقب، وهذا يزعج الرجال القائمين على هذا المنهج السائد، فينظرون إليها على أنّها تهديد لوظائفهم. فهم لا يحبون أن يظهروا كالأغبياء، وأنّ هذه الفكرة الجديدة قد فاتتهم وخطرت في بال غيرهم. فيواجهون الفكرة الجديدة بسخرية واستهزاء، وأحيانًا كثيرة بالمؤامرات الخسيسة!.

البروفيسور المشهور «أليستون» من جامعة لندن واجه معارضة شرسة من قبل زملائه الأكاديميين في بدايات القرن التاسع عشر، بعد إعلان أبحاثه حول التنويم المغناطيسي، ورفضوا حضور أيّ من تجاربه أو قراءة نتائج أبحاثه، بل حاكوا ضده المؤامرات إلى أن تخلّى عن وظيفته في الجامعة وسحبت منه شهادته الأكاديمية فيما بعد!.

إنّ تمسّك بعض الأكاديميين بمفاهيمهم وآرائهم بشكل متعصّب

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 31 .

والدفاع عنها بشراسة تجعلنا نتساءل بدهشة إن كان هذا النوع من الأكاديميين يهتمون بالحقيقة فعلًا؟ أم هو عبارة عن رد فعل غريزي مشابه لسلوك المتعصّبين الدينيين أو بعض المتوحّشين من مشجّعي رياضة كرة القدم، الذين لا يأبهون بالحقيقة أبدًا؟ وكلّ ما يهمهم هو الدفاع عن ما يعتقدون به وينتصرون على الخصم المقابل. وهناك الآلاف من الأمثلة التي تظهر طريقة أصحاب النظر الأعور، من المتشككين الذين يرفضون التصديق بأي شيء غير متوافق مع معتقداتهم ومُسَلَّماتهم المُطْبِقَة على رؤوسهم كالخوذة الحديدية المقفلة بإحكام.

إنّ التعصب العلمي لا يختلف في شيء عن التعصب الديني، فالعلماء المتعصبون ليس لهم علاقة بالعلم إطلاقًا.. وإذا قرأنا تاريخ المسيرة العلمية جيّدًا، سنجد مواقف كثيرة اتخذها رجال العلم و كانت مرعبة فعلًا. نلاحظ مثلًا أن «شارلز داروين» كان يشعر بالخوف من مواجهة المجتمع العلمي بنظريته الجديدة التي أحدثت ضجّة علمية كبيرة في حينها «نظرية التطوّر»، وقد خصّص عدّة صفحات في كتابه «تطوّر الأجناس» يتحدّث فيها عن محاكمة «غاليليو» والظلم الذي لحق به، وقال إن الحقيقة العلمية التي تواجه بالرفض في البداية، قد تثبت مصداقيتها فيما بعد، لكن بعد فوات الأوان، لأن صاحب النظرية الجديدة قد نال نصيبه من الإهانة والتجريح وربما الموت. وكأن داروين كان يحضّر نفسه للمواجهة المحتومة من قبل مجتمع علمي لا يرحم. لكن ماذا حصل بعد ذلك بعدة عقود.. سادت نظرية داروين وأصبحت أساسًا صلبًا يعتمد عليه العلم في تفسير مظاهر الوجود!.

ومن جديد كأنما التاريخ يعيد نفسه، إذ نرى أن الداروينيين يحاربون «جيمس لوفلوك» بسبب نظريته «غايا» و«روبرت شيلدريك» بسبب نظرية «الحقل الموفوجيني» . مع أنهم يعلمون جيدًا بأن هذه النظريات العصرية عملت على تفسير جوانب كثيرة في الوجود ما زالت غامضة على المذهب الداروينى.

هذه الظاهرة السائدة بين المناهج العلمية التي سادت على مرّ العصور، تفصح لنا عن حقيقة واضحة.. هذه الحقيقة المؤلمة تقول: إن الأمر بالنسبة للأكاديميين هو عبارة عن صراع رجال مؤسسات علمية وليس صراع حقائق، والمؤسسة العلمية السائدة هي التي تفرض منطقها على الجميع، بغض النظر عن مدى مصداقيتها، أما الحقيقة المجرّدة، فلتذهب إلى الجحيم!.

لهذا تبدل الأفعى جلدها

«لا توجد هناك اكتشافات عقيمة ولا يمكن إجبار العالم على التوقف عن أبحاثه باعتبارها غير مجدية اليوم.. فإن ألقينا جانبًا وبإهمال الأبحاث التي تبدو هامشية والتي تدور مع ذلك حول اكتشاف كنه أسرار الطبيعة فإننا نخاطر بأن نفقد الكثير، لأن معرفة القوى الخفية للطبيعة تؤدي دومًا إلى السيطرة على هذه القوى» [1]

ميخائيل لافرينتيف

تخبرنا مصادر الحضارة العلمية أنّ أرضية النظرة الكونية التي تولّدت في عصر النهضة، أخذت تترنح ذات اليمين وذات الشمال منذ بدايات القرن العشرين، وقد أفضى ذلك الترنح إلى وجود نظرتين علميتين متنافستين، إحداهما تشد وأخرى تجذب، وعلى حد تعبير أحد مؤرخي الحضارات «توماس بري»: «فالقضية كلّها قضية نظرة، ونحن الآن بالذات نواجه مشكلة لأنه ليس لدينا نظرة مقبولة، فلا النظرة القديمة تؤدي دورها على الوجه السليم ، ولا نحن تعلمنا النظرة الجديدة»[2] .

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 32 .

2- العلم في منظوره الجديد ـ روبرت م . أغروس ، جورج ن . ستانسيو ـ ترجمة دكتور كمال خلايلي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ 1989 ـ ص 15.

والمقصود بالنظرة كما يقول توماس: «هو تصور حضارة ما للعالم، أي الإطار الكوني الذي يفهم وفقًا له كلّ شيء»[1].

إنّ هذا لشيء عجيب حقًّا.. فرضت اللاهوتية سلطان إمبراطوريتها قرونًا على النظرة الكونية مرتدية رداء الناطق الرسمي باسم الرب .

في مجال علم الميكانيك على سبيل المثال، كان الفيلسوف «أرسطو» قد ذكر قبل ألفي سنة أن سرعات سقوط الأجسام تتناسب مع أوزانها ، وهكذا كان يعتقد بأن الأجسام الأثقل تسقط بسرعة أكبر من الأجسام الخفيفة ، وعلّم هذا لطلابه ومريديه، وظلّت أجيال من العلماء تقبل هذا المبدأ احتراما لرأي أرسطو.

لم يكن «غاليلو» ذلك الشخص الذي يرضى أن تؤثر فيه العادة أو ما ألِفَه الناس، لهذا فإنه وحتى الأمور التي قد تبدو مسلّمة عند غيره يسعى إلى اختبارها للتأكد من صحتها، وهكذا قرر أن يختبر صحة هذا المبدأ، وبعد سلسلة من التجارب اكتشف بأن أرسطو كان مخطئًا، فقد جرّب إسقاط أجسام مختلفة الأشكال والأوزان من نفس الموضع، وكانت الأجسام تصل إلى سطح الأرض في نفس الفترة الزمنية، وقد أجرى «غاليلو» حسابات بسيطة لدعم تجاربه وتفسيرها، وخَلُص إلى نتيجة مفادها: أنّ المسافات التي يقطعها جسم أُفْلِتَ من السكون كي يسقط سقوطًا حرًا في جو الأرض تتناسب فيما بينها كتناسب مربعات الفترة الزمنية التي يستغرقها الجسم في

1- المصدر السابق ـ ص 11.

قطع هذه المسافات، أي: أنّ الأجسام الثقيلة والخفيفة تسقط بنفس السرعة، ماعدا الحالات التي تصطدم بها الأجسام باحتكاك الهواء، وهكذا دحض غاليلو آراء أرسطو بشكل قاطع. وهذا كان يعد خروجًا على المألوف في ذلك الزمان، بل وجرأة كبيرة على فيلسوف كبير كالمعلم الأول «أرسطو».

الأرض حسب تصور الإنجيليين كانت قرصًا مسطحًا يوجد في مركز الكون وتدور حوله الشمس وسائر النجوم والكواكب منذ خلقها الربّ، حتى جاء العالم «كوبرنيكوس» ليكون أحد رواد التفكير خارج الصندوق، فوضع نظرية بعد سلسلة مشاهدات فلكية وحسابات رياضية، تنص على أنّ الأرض ليست مركز الكون، بل الشمس هي المركز وأنّ الأرض وسائر الكواكب تدور حولها. ولما أحسّ «كوبرنيكوس» بأنّ هذه النظرية ستتسبب بمقتله على يد ذلك النمط من الرجال الذي يأبى إلاّ التمسك بالموروث الفكري والعقدي دونما تحقيق أو تمحيص، رفع كتابًا إلى البابا بولس الثالث يتنصل فيه من نظرياته وأفكاره، ثم جاء بعده «برونو» وأعلن قبوله للنظام «الكوبرنيكي»، فاعتبر ذلك منه خروجًا على الكنيسة، فلجأ إلى جمهورية البندقية، ولكنه حُوكم، وحُكم عليه بالسجن، وبعد ست سنوات، رأى أولو الأمر أنّ السجن لا يكفي في معاقبته، فحُكم عليه بالموت حرقًا.

وجاء دور غاليلو.. كان غاليلو قد استطاع عام 1600 أن يبرهن بوضوح لا يقبل الشك على صحة نظريات كوبرنيكوس، وقد أعلن غاليلو في عام 1604م أن كوبرنيكوس هو المصيب، فما كان إلا أن أستُدعيَ للمحاكمة، وأمام مجمع الكرادلة حكموا بإعدامه وإعدام مؤلفاته، ولكن نظرًا لكبر سنه، واعتلال صحته، وإعلانه لتوبته، اكتفت المحكمة بسجنه في ديوان التفتيش طول عمره، بعد أن يشجب أمام الجمهور وجهة نظره وهي أنّ

الأرض تدور حول الشمس... وقد صرّح العالم البالغ من العمر 69 عامًا بهذا الأمر أمام الجمهور، ثم خرج من المحكمة وهو يقول كلمته المعروفة: «ومع ذلك فهي تدور» وظل سجينًا في مدينة أركتيري إلى أن توفي عام 1642م.

ثم ماذا كان الثمن الذي دفعته الكنيسة بسبب ارتدائها ثوب «الخصم والحكم»؟

كان الثمن هو الإقامة الجبرية بين جدران الكنائس والأديرة، على يد قياصرة العلمانية، لتبسط العلمانية سطوة سلطانها معلنة الإمبراطورية المادية قرونا أخرى..

قامت النظرة الكونية المادية على أساس يناقض النظرة اللاهوتية تماما، وفيها لا وجود إلا للمادة ، وأنّ الأشياء جميعا قابلة للتفسير بلغة المادة فحسب، وهكذا يتحتم أن تكون حرية الاختيار وهمًا من الأوهام ما دامت المادة غير قادرة على التصرف الحر، ولما كانت المادة عاجزة عن أن تخطط أو تهدف إلى أي شيء، فلا سبيل إلى العثور على حكمة وراء الأشياء الطبيعية، بل إن العقل ذاته يعتبر نتاجًا ثانويًا لنشاط الدماغ .

إننا نلمس بوضوح أنّ التاريخ أخذ يعيد نفسه من جديد بالنسبة لطبقة العلماء الذين أصبحوا مقتنعين بأنهم رجال الحقيقة المطلقة كما كان الكهنة يدّعون ذلك لأنفسهم قبلهم، فالعلمانيون بدؤوا يعارضون الأفكار الجديدة التي تخرج عن منطقهم العلمي، و يستبعدون حقيقتها وواقعيتها، وتعاملوا معها كما كان يتعامل المنهج العلمي القديم «الكنيسة» مع أفكارهم التي كانت خارجة عن منطقه.

ثم ماذا كان ؟

منذ العام 1903 مرّ العلم بسلسلة مثيرة من الطفرات:

أولاً: في الفيزياء على أيدي ماكس بلانك، أينشتاين، وبور، وهايزنبيرغ.

وثانيًا: في الأعصاب بفضل شرنغتون، واكلس، وسبري، و بنفيلد.

وثالثًا: في علم النفس بفضل فرانكل، وماسلو، وماي.

ورابعًا: في علم الكونيات بفعل نظرية «الانفجار العظيم» و«المبدأ الإنساني».

إن هذه المكتشفات لم تقلب التصور الحديث للإنسان ولمكانته، في العالم فحسب، بل هي تقدّم ـ على غير توقع من أحد ـ تفسيرًا جديدًا ونظرة جديدة للكون.

يقول الفيزيائي الروسي «نيكولاي ادموف»: «إن المنظومات العلمية تتهاوى، وهي لا تختفي من دون أثر، فعلى أنقاضها تشيّد نظريات أكثر عصرية وأطول عمرًا »[1].

في أحد الأيام سأل أحد الطلاب عالم ميكانيكا الكم الفرنسي «لويس دي برويل» عن سرّ تقدم العلوم ورقي المعرفة فقال له: «إنّ العلم الإنساني في الواقع عقلاني في أسسه وطرائقه، ويمكن أن ينفّذ منجزاته المهمة بواسطة قفزات فكرية مفاجئة خطرة فقط عندما تظهر القابليات المتحررة من قيود التحليلات القديمة الثقيلة، قفزات قد يسمّونها بالخيال أو الحدس أو حدّة الذكاء»[2].

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 6 .

2- المصدر نفسه ـ ص 11 .

السرّ يكمن إذن في التحرر من قيود التحليلات القديمة الثقيلة، وعلى هذا فما أن يحاول الباحث أو المفكر أن يتجنّبها أو أن لا يعتبرها مسلّمات قطعية فإن تغيرًا معينًا يظهر في المجال البحثي أو المعرفي الذي يتناوله بالبحث أو الدراسة، يقول عالم الفيزياء الكمية الألماني «فيرنر هيزبزغ» مؤكدًا: «لا يمكن استنباط الجديد بحق إلا في تلك الحالة التي نكون فيها مستعدين في المكان الحاسم للتخلي عن تلك القواعد التي استند إليها العلم القويم والقفز بدرجة ما في الفراغ »[1].

هذا النموذج في التفكير الذي أسمّيه أنا «المنفتح» ويسمّيه غيري «المتحرر» هو السبب وراء الاستمرار في توسع المعارف بكل أشكالها وأنواعها كما يرى عالم الطبيعيات الروسي «فاسيلي دكوجاييف» الذي قرأت له نصّـًا متميزًا يقول فيه: « إنّنا لا نملك حقائق مطلقة متكاملة بل نملك معارف إنسانية متغيّرة أمّا تلك الحقائق التي اعتبرت مثّبتة بشكل نهائي فسوف تُستبدل بأخرى وهكذا فإنّ حجم معارفنا يتوسع باستمرار»[2].

من هنا نستطيع أن نفهم القول الفلسفي الذي ذكره الانكليزي «فرانسيس بيكون»: «إنّ الأشياء التي اكتشفتها العلوم حتى الآن تقع تقريبًا على سطح المفاهيم المتداولة، وينبغي من أجل النفاذ إلى أعماق الطبيعة الابتعاد وبشكل أكثر ثقة وبطريقة حذرة عن المفاهيم والبديهيات السابقة »[3].

وفي كتابه «بنية الثورات العلمية»، كتب «كون»: «التحول المتتالي من

1- د. أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 26 .
2- المصدر نفسه ـ ص 21 .
3- المصدر نفسه ـ ص 12 .

أحد النماذج الفكرية إلى نموذج آخر من خلال الثورة هو طابع التطور المعتاد للعلم الناضج »[1].

كان الرأي السائد في صفوف معظم العلماء، أنّ العلم يتقدم بشكل تراكميّ، العلم وصل إلى حالته الراهنة بعملية تراكم للمعرفة بطيئة ومستمرة وهكذا في المستقبل سيتقدم أكثر. هذا التصور كان رائده نيوتن ، لكن «كون» يقول لنا: إن هذا التصور لعملية تطور العلم هو تصور خاطئ. صحيح أنّ التراكم يلعب دورًا رائدًا وأساسيًا في عملية تقدم العلم، ولكن التغييرات الأساسية والكبرى تحصل بفعل «الثورات العلمية» .

يعتقد كون أن في العالم دائما هناك أنموذج «باراديغم» مسيطر، واستنادًا إلى هذا النموذج يتحرك «العلم العادي» في فترات تتراكم فيها المعرفة، ووقتها يقع أغلب العلماء فريسة الخضوع لسيطرة ذلك النموذج فيتبنّون نشره والدفاع عنه، ومع الوقت تظهر حالات شاذة من المستحيل فهمها من خلال النموذج الفكري المسيطر يسمّيها «انوماليا» وعندما تزداد الحالات الشاذة أو كما توصف «اللاانتظامية» تتكون أزمة فكرية، وهذه الأزمة بدورها تؤدي إلى الثورة العلمية، ومن ثم توليد «باراديغم» جديد وتعود نفس الكرّة.

المثْبت تاريخيا أنّ فكرة «كون» نفسها كانت ثورية في وقته، فقد تسببت في تغير كبير في الطريقة التي يتحدث بها الأكاديميون عن العلم، وهكذا فقد كانت في حدّ ذاتها نقلة في تاريخ وسوسيولوجيا العلم. وقد تقبّل فلاسفة

1- كون ـ بنية الثورات العلمية ـ ص 12 .

العلوم ومؤرخوها في نهاية المطاف بمن فيهم كون نفسه نسخة معدّلة من نموذجه، مما يخلق نظرة جديدة لنموذج متدرّج يسبقها ، وحاليا ينظر إلى نموذج «كون» على أنه قاصر جدا.

هناك أمثلة صارت تعد كلاسيكية للتدليل على تحول «الباراديغم» والثورة العلمية بالمعنى الذي أراده كون، ومنها:

1. التحول من الرؤية البطلمية[1] للكون، إلى رؤية كوبرنيكوس.
2. توحيد الفيزياء الكلاسيكية على يد نيوتن إلى رؤية ميكانيكية للعالم.
3. الانتقال من الرؤية الكهرمغناطيسية لماكسويل إلى نسبية آينشتاين.
4. التحول من فيزياء نيوتن إلى نسبية آينشتاين.
5. تطور ميكانيكا الكم التي أعادت تعريف الميكانيك.
6. ظهور نظرية داروين في التطور عبر الاصطفاء الطبيعي بدلاً من رؤية لامارك التي ترى وراثة الصفات المكتسبة.
7. القبول بنظرية «الانقلاب الصفيحي» لتفسير التغييرات الجيولوجية.

وهكذا.. اضطر العلماء لإعادة النظر بعدد من القضايا الرئيسة التي تنكّر لها أكثر من ثلاثة قرون، كردة فعل ضد المنهج اللاهوتي الكنسي اللاعلمي، ومن تلك القضايا: قضية الوعي التي ربما نشير إليها في أكثر من مكان في رؤيتنا هذه، وفحوى هذه القضية يشرحها الفيزيائي «جون ويلر» فيقول: كان من الطبيعي على مدى فترة طويلة من الزمن أن يعتبر المراقب ـ أي العالم القائم بالتجربة ـ أنه معزول عن التأثير في التجربة التي

1- نسبة إلى بطليموس.

يجريها وذلك لأنه معزول عنها بلوح زجاجي تبلغ سماكته «10 سم»، ولكن في فيزياء الكم ثبت العكس تماما، فقد تم التيقن من أن طريقة تفكير القائم بالتجربة «المراقب أو الراصد» يحدث تأثيرا واختلافا لا سبيل إلى استرجاعه فيما ينتهي إليه من نتائج، وهكذا تم ترقية «المراقب» يصبح «مشاركا». ثم اعترف «ويلر» قائلا: إن ما أوحت به الفلسفة في غابر الأزمنة تبيّنه لنا اليوم ميكانيكا الكم بقوة مثيرة للإعجاب ، فعالمنا اليوم بطريقة غريبة عالم قائم على المشاركة[1].

وهذا يدل ـ كما يقول الفيزيائي «يوجين فيغنر Eugene Wegner» ـ على أن مفهوم الوعي عاد إلى المقدمة مرة أخرى، إذ لم يعد ممكنا صياغة قوانين ميكانيكا الكم دون الرجوع إلى الوعي[2] .

أي أن العلماء هربوا من تدخل الشخصي الذاتي في التجارب العلمية الكونية لقرون، ثم وجدوا أنفسهم في نهاية المطاف مضطرون للتراجع عن هذا الفصل والإقرار بوجود صلة أو تأثير من نوع معين بين كلّ شيء في الطبيعة، يقول فينغر:« كان جلّ العلماء الطبيعيين إلى عهد غير بعيد، ينكرون بشدة «وجود» العقل أو الروح، على أن النجاح الباهر الذي حققه علم الفيزياء الميكانيكية والفيزياء العيانية بصورة أعم، وكذلك علم الكيمياء، قد حجب الواقع الجلي، ذلك الذي يقول إن الأفكار والرغبات والعواطف ليست من صنع المادة»[3].

1- العلم في منظوره الجديد ـ ص 22 .
2- المصدر نفسه ـ ص 22 .
3- المصدر نفسه ـ ص 22.

ربما تكون الفنتازيا قمة الهرم

«إن لم نشعر بالغموض عند تعلّمنا الكم ، فذلك
يعني أننا لم نفهم كلمة واحدة من الذي تلقيناه »

نيلز بور

في أحد أيام عام 2000م نصحنى صديق بأن أقرء كتاب «اللامنتمي» للأديب الانجليزي «كولين ويلسن» وبعد أن قرأته شعرت بأنه قد أحدث في داخلي ضجة أدبية فكرية لا تقل عن تلك الضجة التي حدثت عندما نُشر هذا الكتاب عام 1956م، حتى أن ناقدا كـ «فيليب توينبي» قال: إن مؤلفه «قد أضاف بالفعل إلى فهمنا لأشد مشكلاتنا عمقًا».

يقول ويلسون: «اللامنتمي هو الإنسان الذي يدرك ما تنهض عليه الحياة الإنسانية من أساس واهٍ، وهو الذي يشعر بأن الاضطراب والفوضوية أكثر عمقًا وتجذّرًا من النظام الذي يؤمن بهِ قومه.. إنه ليس مجنونًا، هو فقط أكثر حساسية من الأشخاص المتفائلين صحيحي العقول.. مشكلته في الأساس هي مشكلة الحرية.. هو يريد أن يكون حرّاً ويرى أن صحيح العقل ليس حرّاً، ولا نقصد بالطبع الحرّية السياسية، وإنما الحرّية بمعناها الروحي العميق.. إنّ جوهر الدين هو الحرية، ولهذا فغالبًا ما نجد اللامنتمي يلجأ

إلى مثل هذا الحل إذا قُيِّض لهُ أن يجد حلًا.. !» .

اللامنتمي عند ويلسن إذن هو الشخص الذي لا يتلاءم مع المجتمع الذي يعيش فيه، الشخص الذي رأى أكثر مما يجب، وتعمّق في رؤيته أكثر مما ينبغي، ما يراه في العالم هو الفوضى وليس النظام الذي يجده الشخصُ البرجوازي المنسجم مع مجتمعه، إنه الوحيد الذي في مقدوره رؤية الأمور على حقيقتها، فيشعر بأنّ العالم تعوزه الحقيقة، إنّه المريض الوحيد الذي يدرك أنه مريض في حضارة لا تعي مرضها.

والواقع أنّ الضجة التي حصلت بداخلي ليس بسبب فكرة الكتاب أو موضوعه ـ على غرابته طبعًا ـ وإنما بسبب المصادر التي اعتمدها الكتاب وأسلوب الطرح، ففي الوقت الذي يتحدث فيه الكاتب عن مشكلة إنسانية غير مقتصرة على حضارة بعينها، فإنّ المصادر والمراجع المعرفية التي يعتمد عليها هي مجموعة من الإشارات المستفيضة والتحليلات الرائعة لنتاجات بعض الكُتّاب والفلاسفة، وتناولِ بعض الشخصيات الحيّة كراقص الباليه الروسي «نيجنسكي Nijinsky» والرسام الهولندي «فان جوخ Van Gogh» والغريب بالفعل استناده إلى شخصيات خيالية في روايات قصصية عالمية، ليَخْلُص في النهاية إلى ما يظنه حلا لمشكلة الغريب.

رُحتُ أتساءل مع نفسي، هل يجوز ذلك؟هل يمكن أن يعتمد أحد على الخيال والجوانب الفنتازية في الحياة لاكتشاف أسرارها والحديث عن مشاكلها وعلاجها؟ وباختصار كان كتاب «اللامنتمي» عندي تجسيد حيّ لكاتبه نفسه، وكأنه هو لا منتم لواقع الكتّاب والمؤلفين فضلا عن المادة الموضوعية التي تناولها الكتاب.

ثم بعد مرور ثماني سنوات تقريبًا أي في عام 2008م، انفتح أمامي باب جديد من أبواب المعرفة الإنسانية، وهو التعمّق في دراسة خواص ومقوّمات الفيزياء الحديثة وتحديدا «فيزياء الكم».

في هذه الفيزياء وجدتُ عمالقة العلم الطبيعي كأينشتاين ونيلز بور وهايزنبرغ وغيرهم قد وقفوا على عتبة البنية الفوضوية للمادة، وكأنهم من دون الناس يرون بعيون اللامنتمي أنّ ما يراه عامه الناس من سكون ونظام في بنية المادة ما هو إلا وهمٌ لأن جوهر المادة قائم على الحركة الفوضوية للجسيمات ما دون الذرية.

حقيقة وبعد ثماني سنوات حدثت ضجة أخرى في داخلي بسبب هذا التلاقي بين فكر أديب مثل «ويلسن» وبين أخطر ما توصل له العلم الحديث..

ما أسمّيه أنا «ضجة» كان قد أصاب حتى أكابر العلماء أنفسهم حين واجهوا هذه الحقيقة التي تضطر الفكر الإنساني للسير في طريق ذي اتجاه واحد هو طريق تصديق اللامصدق، أو تصديق ما لا يمكن تصديقه، وهو أمر تقبله بعض العلماء، وتوقف عنده آخرون، وأنكره قلة قليلة بسبب غلبة العين العوراء عندهم.

لنستمع معًا للضجة التي كانت تدور في داخل أحد كبار العلماء في هذا المجال وهو الفيزيائي «هايزنبرغ» حيث يتذكر في كتابه «الفيزياء والفلسفة» الشكوك التي كانت تراوده في بداية دراسته للمفهوم الجديد لميكانيك الكم حيث يقول: «أتذكر الجدل الذي كان يدور مع «بور» حيث كنا نقضي ساعات طويلة في ذلك ، وإلى أوقات متأخرة من الليل، وكانت النتائج

بائسة، فكنت ألوذ ساحبًا خطاي نحو متنزه مجاور، مكررًا على نفسي ذات السؤال المحير: هل يمكن أن تكون الطبيعة منافية للمنطق والعقل إلى نفس الحد الذي تظهر فيه في تجارب الذرة !؟[1] .

من أبرز المعروفين برفضهم لنظرية الكم، العالم أينشتاين، فعلى الرغم من الدور الذي أداه في صياغة هذه النظرية، إلا أنه لم يكن يشعر بالارتياح والاطمئنان إليها، وقد ظل يردد حتى آخر أيامه أن هذه النظرية إما أنّ تكون غير صحيحة بالمرة، أو أنّ نصفها صحيح فحسب، ويؤكد أينشتاين أن وراء الفوضى واللانظام في عالم الكم، عالمًا تقليديًا مألوفًا، يتكوّن من حقيقة صلبة تمتلك فيه الأجسام خصائص معروفة، ومحدّدة مثل المكان والسرعة، وتنتقل حسب قوانين حتمية في السبب والنتيجة.

إنّ العالَـمَ الذريّ المجنون كما تصوِّره نظرية الكم ليس بعالم أساسي في نظر أينشتاين، بل هو واجهة غير صحيحة، وعلى مستوى أعمق من التفكير، لا بدّ من هيمنة العقلانية والمنطقية من وجهة نظره، وقد حاول أينشتاين أن يجد هذا المستوى الأعمق عبر جدله المستمر ونقاشاته الطويلة مع «بور» الناطق الرسمي الأقوى باسم «الخط الجماعي» الذي كان يؤكد أنّ «العشوائية» أساسية، وموروثة في الطبيعة.

إنّ هذا الجنون في باطن المادة جعل هؤلاء العلماء أشبه ما يكونون جميعًا بـ «لا منتمين» ويلسن الذين لم تعد الرتابة الظاهرية التي يرونها في الحياة الإنسانية لتحجبهم عن رؤية الجنون والفوضى الباطنة في تلك الحياة..

1- باول ديفز ـ القوة العظمى ـ وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ـ ص 51 - 52 .

والفرق أنّ لا منتميي الطبيعة رأوا ذلك في جوهر المادة، بينما رآه لا منتمو ويلسن في النفس الإنسانية.

لقد كان بور مُسَلِّما تماما لهذا الغموض القائم على الفوضى والجنون ولها قال لزملائه مرة : «إن لم نشعر بالغموض عند تعلمنا الكم، فذلك يعني أننا لم نفهم كلمة واحدة من الذي تلقيناه» .

لا شك بأن هذا المستوى من الفهم لما لا يمكن تصوّره هو تتويج لمبدأ التفكير خارج الصندوق، حتى أن المفكر الألماني «يوهان غوتيه» اعتبره من ضرورات التفكير الطبيعي وإلا لما وجد أصلاً، وقد عبّر عن ذلك بقوله: «يجب على الإنسان أن يؤمن بأنه يمكن فهم اللامفهوم وإلا لما قام هو بالتفكير بذلك»[1].

فعلا ربما تكون الفنتازيا قمة الهرم ..

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 27 .

وفجأة ظهر الشبح وكأنه القمر

«لا تكتسب قيمة فائقة في حقل العلوم سوى النتائج المفاجئة» [1]

الكسندر بايكوف

نحن ننشأ في بيئة تحاول أن تزرع فينا منذ نعومة أظافرنا بأنّ الباب الوحيد للمعرفة هو المناهج الأكاديمية التي وضعها لنا رجال الدين أو المفسرون أو اللغويون أو ما إلى ذلك حسب اختصاص العلوم .

في عالمنا الفكري، لا علم ولا تعلّم إلا من خلال هذه المنظومة الصارمة.. حيث الضوابط والشروط والقواعد والأصول التي لا محيص لطالب العلم من أن يسير على سكّتها شاء ذلك أم أبى، استجابت لها روحه أم رفضتها.. ومن هو ليناقش هذه المبادئ التي تعارف عليها علماؤنا وأساتذتنا؟

في هذا الفضاء الذي ترسم حوله هالة تصل إلى حد التقديس غير المباشر أو غير المعلن، ليس لك إلا أحد طريقين لا ثالث لهما، بل الويل لك إن تجرّأت وفكرت في الطريق الثالث مهما كان ذلك الطريق:

أمّا الطريق الأول فهو أن لا تخالف القواعد قيد أنملة ، لك أن تفكر

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 8 .

ولكن ضمن الإطار المرسوم لك سلفا من قبل المختصين الأجلاء.

وأما الطريق الثاني فهو أن تترك هذا الباب جملة وتفصيلا وتذهب لتفتح لك حانوتا ترتزق منه أنت وعيالك، أو تدخل إحدى دوامات الحياة وما أكثرها في مجتمعاتنا.

ما دمت تسلك أحد هذين السبيلين فأنت آمن على عقلك ودينك ووطنك، وإلا ـ وآه من إلا هذه وأي آه ـ فإنك ستعرّض نفسك لخطر هدر كيانك الفكري أو العلمي.

وفي التاريخ نماذج عديدة وكثيرة تتحدث عمن تجرؤوا فخاطروا باختيار طريق ثالث خاص بهم، فأصبحوا بلا أوراق ولا أوطان.. على سبيل المثال قديما أُلقيت كتب الفيلسوف المسلم العربي ابن رشد وأسفاره في المحرقة لتلتهمها النيران، وحديثًا سُحبت الشهادة العلمية من الدكتور الأكاديمي المتخصص في فقه اللغة العربية نصر حامد أبو زيد ونُفي من وطنه وحكم عليه بالردة وأمر بالتفريق بينه وبين زوجته ، لأنه تجرأ ووضع أطروحة في «نقد العقل الديني».

في عام 1925م ألّف الشيخ علي عبد الرزاق كتابًا اسماه «الإسلام وأصول الحكم»، فسحبت منه شهادته العالمية.

وفي عام 1926 ألّف «طه حسين» كتابه المثير للجدل «في الشعر الجاهلي» وعمل فيه بمبدأ ديكارت وخلص في استنتاجاته وتحليلاته إلى أن الشعر الجاهلي منحول، وأنه كتب بعد الإسلام ونسب للشعراء الجاهليين. فتصدى له العديد من علماء الفلسفة واللغة ومنهم: مصطفى صادق الرافعي والخضر

حسين ومحمد لطفي جمعة والشيخ محمد الخضري وغيرهم، كما قاضى عدد من علماء الأزهر طه حسين، فعدّل اسم كتابه إلى «في الأدب الجاهلي» وحذف منه المقاطع الأربعة التي أخذت عليه.

«فرج فودة» كان الثمن الذي دفعه مقابل خروجه على المسار التقليدي هو التكفير والحكم بالقتل، وفي عام 1992م اغتيل بالفعل حين كان يهم بالخروج من مكتبه بشارع «اسما فهمي» بمدينة نصر إحدى ضواحي القاهرة بصحبة ابنه الأصغر وأحد أصدقائه الساعة السادسة و45 دقيقة.

والأغرب من ذلك كله الحوار الذي دار مع القاتل في المحكمة ونصه كما نشرته جريدة الاتحاد المصرية:

ـ لماذا اغتلت فرج فودة ؟

ـ القاتل : لأنه كافر.

ـ ومن أيٍّ من كتبه عرفت أنه كافر ؟

ـ القاتل : أنا لم أقرأ كتبه.

ـ كيف ؟

ـ القاتل : أنا لا أقرأ ولا أكتب .

إنه لخيار صعب، وصعب جدا في عالمنا أن تحاول التفكير خارج الصندوق، ولكن ماذا يفعل من لم يخلق إلا لهذا؟

أظنّ أنّ لا خيار أمامه إلا الطريق الثالثة ومفاجآتها السارة حينًا وغير السارة أحيانًا كثيرة.

من المصادر المعرفية المستبعد الاعتراف بها في الأوساط التي أشرت

إليها ما يسميه الصوفية «الإلهام» ويسميه المفكرون «الوثوب الذهني» ويسميه المهتمون بالعلوم الميتافيزيقا «الاستبصار» ويسميه الفلاسفة وعلماء الطبيعة «الحدس».. إلخ، وذلك لأنها تخترق تلك المنظومة الكلاسيكية جملة وتفصيلا، فلا تستند إلى أيّ أساس من أسسها ولا ترجع إلى ضابط من ضوابطها، ليس لأنها تنكره بل، لأنها لا تحتاج إليها في إيصال المعلومة لطالبها سواء أكان أديبًا أم فيلسوفًا أم عالمًا أم باحثًا عن العلم في أيّ مجال من مجالات الحياة.

المعلومة في هذا الإطار تفرض نفسها على من يحتاج إليها بلا سابق إنذار أو انتظار، ومهما تحقق منها من يحصل عليها بجميع الوسائل المنهجية التي يعرفها، فإنه سيجدها صحيحة ومتفوّقة على واقعها ، على الأقل مرحليًا، أي في مرحلة معيّنة من مراحل الرقي العلمي الإنساني.

فلنستمع لبعض ما ذكر في شأن هذا العلم الذي يغلب عليه تسمية «الحدس» ولنتأمل مواقف الأكابر بشأنه:

كتب المبدع «فؤاد التكرلي» عن تجربته الحدسية في العمل الروائي حيث قال: «كنت قبل سنة 1950م أحاول أن أهتدي بمقولات نظرية واضحة تقودني إلى كتابة أقصوصة عراقية ناجحة على المستوى الفني، وكنت أقرأ الكثير من الأقاصيص العربية والمترجمة ، وأتأمل في المكونات الصياغية لتلك الأقاصيص، ولم أخرج من تلك القراءات القصصية بنتائج محددة، ولكني اكتسبت حدسًا فنيًا بما هو جيد وما هو رديء. كانت لديَّ افتراضات كثيرة عن اللغة والشكل الفني ونوعية المادة الخام والحوار والدلالة العامة للأقصوصة، وكانت كلها افتراضات مائعة ومختلطة، بحيث وجدتني في

حيرة أتساءل عن كيفية الاستفادة من هذا الخليط الغامض من الأفكار، وكان الحل الحاسم «هو الشروع» في الكتابة.. كتابة الأقصوصة التي تضع على الورق ما يحتشد به ذهني من تفاصيل وافتراضات وهواجس، ولقد حدث لي هذا الحادث «الحدس» المنتظر من دون مقدمات في شهر ديسمبر سنة 1950م فكتبت أقصوصتي الحقيقية الأولى وكان اسمها «العيون الخضر» استطعت أن أعزل نفسي عن العالم وأن أنجز كتابة ذلك العمل».

يعلّق المفكر المعروف «البليهي» قائلا: إن المبدع لم يتعجل قطف الثمار، وإنما أطال الصبر والانتظار حتى نضجت، لقد هيّأ نفسه على مهل وبنى قدرته برويّة، واستعان بكل ما يمكن الاستعانة به من النظريات وأشكال الأداء، وأعطى كلّ ذلك مدّة كافية للتفاعل والاختمار، وفجأة أدرك أنّ الشكل الإبداعي يتخلّق ببطء أثناء الأدا، وتتحدد عناصره بالتنفيذ فأهَّلَته هذه الخبرة الأولية لكتابة روايته الأولى «الوجه الآخر» التي أنضجَت تجربته ورسّخَت ثقته بنفسه، فأنجز عمله الروائي الآخر «الرجع البعيد»، ثم أراد أن يغيِّر زاوية المنظور وشكل التعبير متحدّيًا ذاته بأن يبدع عملًا روائيًا لا يكون امتدادًا لأعماله الروائية السابقة وكما يقول: « خلال اثنتي عشرة سنة كنت مستغرقًا في استرجاعات مستديمة لما أملك في مخزون ذاكرتي من مواد حياتية خام قد تصلح لتنفيذ افتراضات فنّية جديدة، وكنت هادئًا صابرًا غير مكترث لمرور الزمن «وغير ضجر من طول الانتظار» آملا أن أعثر ليس على فكرة روائية، بل على فكرة روائية تتحداني أن أكتبها كما يجب.. ثم انتبهت إلى أني أغش نفسي وأتظاهر بالتغافل عما أعرفه جيدًا، فقد كانت فكرة رواية «خاتم الرمل» موجودة منذ أكثر من عشرين عامًا في زاوية من

عقلي.. أتذكّرها أحيانًا وأتفحّصها مليًّا ثم أبعدها إلى زاويتها المظلمة.. كنتُ أشعر بأني لم أكن متهيئًا تمامًا على مستوى التشكيل واللغة لتنفيذها، ثم خلال أسبوع أو أسبوعين في سنة 1993م تسرَّب إليّ أو هَبَطَ عليَّ الحل الممكن لعُقدة الرواية.. اتضح في ذهني شكلُها المفترض المبني على أساس لغوي خاص فباشرت بتنفيذه من دون تردد».

من هنا ذهب «البليهي» في تعريفه للحدس الخارق والصائب إلى القول: «هو ضوء يسطع في الذهن فجأة وبقوة، فيفتح أبواب الحقيقة للباحثين، ويمدّ العاملين بالإلهام، وهو ذروة المصادر الأربعة الرئيسية للمعرفة » .

وفي رأيه: «إن الحدس الصائب لا يتحقق إلا بمنظومة من الشروط تضاف كلها إلى الموهبة المتوقدة:

وأول هذه الشروط: الامتلاء المعرفي حول الموضوع ، ومعايشته معايشة حميمة وكافية ..

وثانيها: الشعور القويّ بأهمية الحل المطلوب..

وثالثها: الحرارة الوجدانية التي تحشد كلّ طاقات الإنسان المذخورة لتتلاحم في اتجاه واحد..

ورابعها: الاستمرار في الاتجاه نفسه حتى تنكشف الحقيقة ويتحقق الحل..

وخامسها: الاختمار الكافي الذي يؤدي مع التلهف إلى نضج الفكرة .. وعند هذه الذروة يكون الحدس الخارق متوقَّع البزوغ » .

بالنسبة لي هو رأي جدير بالاحترام والاهتمام ..

ومن أشهر الأمثلة على وثبة الإدراك بواسطة الحدس الخارق في مجالات العلم والعمل التي تؤيد ما ذكره البليهي تجربة الغزالي ومحنته التي يذكرها في كتابه «المنقذ من الضلال» إذ وبعد أن أسعفه الحدس الخارق، وَضَعَ قواعد الشك المنهجي ، وكذلك التجربة الفكرية للفيلسوف الفرنسي ديكارت.

ويبدو أن تفاحة نيوتن مثال علمي دقيق لهذه الشروط، فطوال عقدين وهو يعمل على وضع نظريته في الجاذبية، حتى كان عام 1666م كما يقول مساعده في دار السلك الملكية وزوج ابنة أخته «جون كونديات»، حيث استقال نيوتن مرة أخرى من كامبيردج وعاد لوالدته في لينكولينشير. وبينما كان يتجول متأملًا في حديقته، سقطت تفاحة على رأسه المشغول بقضية الجاذبية، ففكر قائلا لنفسه: لماذا تسقط التفاحة دائمًا على الأرض بشكل عمودي؟لماذا لا تنحرف ذات اليمين أو ذات الشمال أو إلى أعلى؟

بعدئذ صاغ قانون الجاذبية حيث اكتملت صيغته في برهة واحدة بعد انتظار دام سنين طوال.

يصدق هنا القول الشعبي المأثور: أنك إذا ضربت صخرة مائة ضربة لتحطيمها، فلا تظنن أن الضربة الأخيرة هي التي هشمتها بل التسعة والتسعون ضربة السابقة لها.

في علم النفس ينظرون إلى الحدس على أنه طاقة معرفية لا شعورية مكبوته وما أن تجد لها منفذا بأي طريقة من الطرق فإنها تظهر نفسها للوعي بشكل مفاجئ، ولهذا يقترن الحدس بأمور قد تكون تافهة مثل سقوط التفاحة أو صوت خرير الماء أو كلمة يقولها أحدهم أو حادث معين أو لحظة خوف أو ما إلى ذلك. يقول عالم النفس الشهير «كارل يونغ»: «الحدس سياق

غير شعوري من حيث إن نتيجته انفجار محتوى غير واع في الواعية.. فكرة مفاجئة أو شعور بأن شيئًا ما سيحدث.. إن الحدس هو فهم غير شعوري لوضع بالغ التعقيد لذلك كان الحدس بمعنى ما في موقع معاكس للغريزة».

وقد يكون المنفذ عن طريق تقيد الوعي كما يحصل في حالة النوم مثلا، يذكر «كارل يونغ» مثالا في كتابه «البنية النفسية للإنسان» يؤكد فيه أن الإنسان إذا كان مشغولا انشغالا شديدا بأية قضية واستعصى حلها عليه في اليقظة فإن احتدام عقله شبه الواعي يستمر في العمل حتى أثناء النوم فيحصل له الحدس الخارق، فيقول: «في رأيي أن جميع الفعاليات التي تحدث في الواعية تظل تعمل في الخافية أيضا.. هناك أمثلة كثيرة على مشكلات فكرية استعصت حلولها في اليقظة ووجدت حلولها في الأحلام.. أعرف خبير حسابات ظل مدة عشرة أيام وهو يحاول بلا طائل أن يكتشف مسألة إفلاس احتيالي وظل ذات يوم يعمل عليها حتى منتصف الليل ولكن دون أن يفلح ثم ذهب إلى النوم.. وفي الساعة الثالثة صباحا أحست زوجته أنه نهض وذهب إلى مكتبه، تبعته فرأته يسجل بعض الملاحظات ثم عاد إلى سريره بعد حوالي ربع ساعة وفي الصباح لم يتذكر شيئا، ولما استأنف عمله اتضح له أن على مكتبه عددًا من الملاحظات مكتوبة بخط يده تسوي المشكلة تسوية نهائية » .

وإذا عدنا إلى دور الحدس في الجانب المعرفي ومن ثم العلمي، نجد أن الفلاسفة انتبهوا له واهتموا به، ونلمس هذا بوضوح في الفلسفة اليونانية، حيث عدّوا الحدس من أهم عناصر نظرية المعرفة ، كما نجد الاهتمام بها في الفلسفة المشائية، وأما في القرون الوسطى فقد اهتم بالحدس ابن سينا

ثم الغزالي ثم عاد الاهتمام بالحدس في أوروبا مع «ديكارت» وعرَّفه بأنه: «التصور الذي يقوم في ذهن خالصٍ منتبهٍ بدرجة من الوضوح والتمييز لا يبقى معها مجال للريب.. أو هو التصور الذهني الذي يصدر عن نور العقل وحده». ومن بعد ديكارت اهتم بالحدس باسكال ومالبرانش وهوبز وليبنتز وسبينوزا وشوبنهاور، كما ظهر هذا الاهتمام في الفلسفة النقدية عند «كانت» أما في القرن العشرين فقد برز الاهتمام الشديد بالظاهرة الحدسية لدى برجسون وكروتشه وباشلار وهاملتون وديوي وغيرهم ممن عالجوا نظرية المعرفة.

على أن أهم مجال تتجلى فيه قيمة الحدس العملية هو في الجانب العلمي، وهذه الحقيقة يوضحها الفيلسوف الأمريكي «بيري» في كتابه «آفاق القيمة» الذي يرى فيه أنّ القدرة الحدسية التي تمكّن الأدباء والرسامين وغيرهم من مبدعي الفنون هي ذاتها القدرة التي تمكّن العلماء من رؤية الاتساق الذي يجمع بين الوقائع، ويزيح الستار عن الحقائق المخبوءة ، فيقول: «إن هذا اللغز ليس وقفًا على الجزء الجمالي من الحياة، فلا تزال رؤية العالم الكبير الذي تنعقد فيه حقائق واكتشافات في وحدة متسقة كانت حتى ذلك الحين لا رابطة بينها.. هذه أيضًا لغز، بيدَ أنّ هناك ألغازًا صغيرة في الحياة اليومية: التذكر المفاجئ لما نُسي.. العبارات الموفّقة والخواطر المُبتكرة.. إنّ أقصى ما يمكن أنْ يقال هو إنّ التجارب الماضية والذكريات المختزنة تبلور نفسها فجأة في وحدات منتظمة تكون شيئًا جديدًا في عالم الوعي، إنّ الخيال ليس مجرد مخزن لشظايا أو نتف أو أشتات ولكنه نشاط إبداعي يبدو أنه تلقائي».

ويقول العالم الفرنسي الشهير «كلود برنار» في كتابه «مدخل إلى دراسة

الطب التجريبي»: «ما من قاعدة يمكن الاعتماد عليها في الإيحاء إلى العقل بفكرة صحيحة مثمرة إلا وتكون للمجرّب بمثابة حدس يوجه الذهن سلفًا نحو بحث موفق.. وكل ما يمكن قوله بعد بزوغ الفكرة هو كيفية إخضاعها للقواعد المنطقية الدقيقة .. أمّا ظهور تلك الفكرة فقد كان تلقائيًا محضًا وطبيعتها فردية خاصة بها.. وهذه الفكرة عبارة عن شعور خاص عن شيء ذاتي مقوّم لعبقرية كلّ فرد وما لديه من روح الابتكار والإبداع ولا يشاركه فيها أحد سواه.. وتبدو الفكرة الجديدة في صورة علاقة جديدة أو غير متوقعة يرى الذهن وجودها بين الأشياء.. ومن العلاقات ما استدق ولطف بحيث لا تحسه ولا تفهمه أو تكشف عنه إلا الأذهان الثاقبة ذات المواهب الممتازة والأذهان الموهوبة أو التي أتيح لها من الظروف العقلية ما جعلها أحسن استعدادا وأفضل تهيئة» .

ويبدو لي أن ما ذكره «كلود» يوضحه عالم الفيزياء في حقل التفجيرات النووية الروسي الأصل «جاكوب زيلدوفيتش» بقوله: «إنّ الحدس والاتجاه نحو الحقيقة وفي النهاية فهم جمال الشكل وجمال الظواهر هي الجوانب المهمة للإبداع العلمي التي تقترب به من الإبداع الفني»[1]، ويؤكده عالم الرياضيات الفرنسي «هنري بوانكاريه» حين يقول باختصار جامع : «نبرهن بالمنطق ونخترع بالحدس» .

إنّ القدرة الحدسية ضرورية في العلم والعمل، فالعلم ـ كما يقول عالم فيزياء الكم الكبير «باول ديفز» في كتابه «القوة العظمى»: «ينمو ويتسع في ظل الحدس والتأمل».

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 22 .

وإذا أردتُ أن ألخّص موقف العلماء من هذا الحق المعرفي فيكفيني هنا أن أنقل نماذج من تصريحاتهم التي لا أظن أنها تحتاج إلى تعليق مني، استجابة لنداء صديق قديم قال لي في وقته : من أشكل المشكلات توضيح الواضحات فلا ترهق نفسك فيها فإنها قادرة على التعريف بنفسها.

وإليك النماذج التي اخترتها:

ـ ألبرت أينشتاين: «إن الإيمان بوجود عالم خارجي، خارج عن نطاق الإحساس الذاتي يشكل جزءًا مهمًا في كلّ العلوم الطبيعية »[1].

ـ الكسندر بايكوف «عالم روسي في البيوكيائيات»: «لا تكتسب قيمة فائقة في حقل العلوم سوى النتائج المفاجئة »[2].

ـ لويس دي برويل : «إن الاكتشافات العظمى وطفرات الفكر العلمي تحدث بفعل الحدس وبطريقة مبدعة وخطرة بحق . إن الأحقاب الجديدة في حقل العلوم تبدأ من التغيرات التي تستحدث في المفاهيم والبديهيات التي استخدمت كأساس للفكر التحليلي»[3].

ـ كارل بير «مؤسس علم الأجنّة»: «إن العلم أبدي في ينبوعه غير محدود في نشاطه لا بالزمن ولا بالفضاء، غير مقاس في حجمه، لا نهائي في مهمته، شامخ بقممه »[4].

إن كشوف العلم، وروائع الفكر، وفتوحات التصوف، وإنجازات

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص7 .
2- المصدر نفسه ـ ص 8 .
3- المصدر نفسه ـ ص 11 .
4- المصدر نفسه ـ ص 13 .

الأدب، ومهارات الفنّ ليست ثمرة من ثمار الالتزام بقواعد البحث وأساليب الأداء فقط، وإنما هي إلهامات مضيئة تنبثق من حرارة الاهتمام، وكما يقول «يوسف أسعد» في كتابه «الشخصية المبدعة»: «المبدع يستعين بمنهج آخر نستطيع أن نسمّيه بالمنهج الاستشفافي أو المنهج الاستشرافي.. ذلك أنّ المبدع يتذرّع بما يسمّى بالحدس.. والحدس هو رؤية ذهنية.. هو قفزة معرفية.. الحدس الذي يتمتّع به المبدع هو نوع من الطفرة المعرفية.. صحيح أنّ المبدع يستعين في مراحل نشاطه الأولى بالشواهد يستنتج منها ما تفضي إليه.. لكنه فجأة يجد نفسه قد قفز أو طفر إلى ذلك المجهول الذي يتسم بكيف جديد تماما».

«أوشو» الحكيم الهندي، صاحب المؤلفات والمقالات التي تتجاوز الألف كتاب، منذ بداية شبابه راح يبحث عن الحقيقة، انطلاقًا من تجاربه واختباراته، وليس من خلال المفاهيم الدينية والاجتماعية السائدة في مجتمعه، أو من خلال ما حاول البعض أن يلقّنه من معارف ومعلومات، وما أن بلغ الحادية والعشرين حتى اكتملت تجربته مع الحياة فكتب يقول: «الإنسان الذكي هو الثائر، وهو الذي يمتلك القدرة على اكتشاف غير العادي في العادي» ويقول: «إنّ جميع أنواع الإبداع هي حدسية، وأنّ معظم الاكتشافات العظيمة تحققت بواسطة الحدس وليس الفكر».

إنّ هذا لا يعدو أن يكون أهون من جناح بعوضة عند من يظنّون أنّ العلم محصور بين مزدوجي الثوابت المقدسة.

لماذا تخلى سندباد عن خارطة الكنز ؟

«البوذي لا يؤمن بعالم خارجي يوجد مستقلًا أو بشكل منفصل، يمكن أن يدخل نفسه في قواه الدينامية ، فالعالم الخارجي وعالمه الداخلي هما بالنسبة له ليسا سوى وجهين للقماشة نفسها ، تكون فيها خيوط كلّ القوى وكل الأحداث، كلّ أشكال الوعي وكل موضوعاتها ، منسوجة في شبكة لا تنفصل من العلاقات اللامنتهية ، المتبادلة الاشتراط » [1]

لاما أناغريكا غوفيندا

خِدَعٌ كثيرة يقع في أوهامها الفكر الإنساني، ومنها ما يكون فيها العقل كمن يسير للمغرب ونيته المشرق، فلا يزال يبتعد كلما ظن أنه بات قاب قوسين أو أدنى من مقصده، فأي مفارقة مضحكة مبكية هذه؟

في ضوء الفيزياء الحديثة بتنا نستطيع القول إنّ السحر انقلب على الساحر، وإنّ تقدم العلم كشف عن الخدعة التي ابتكرها الفكر الضيق وطوّرها ثم صدَّق أنها حقيقة لا يمكن تجاوزها وبات محكوما في أسرها.

ما نتحدث عنه هنا هو قضية القوانين والنظريات والقواعد والمبادئ التي تراكم الاعتقاد بمصداقيتها حتى بات التفكير بإعادة النظر فيها ينتهي إلى التكفير.

1- فيرتجوف كابرا ـ التصوف الشرقي والفيزياء الحديثة ـ ص 141 - 142 .

ما زلنا نسمع من الأكاديميين القول الشائع: إنّ كلّ شيء يمكنك أن تجادل فيه إلا الرياضيات فإنها لا تقبل الخطأ.

وما زلنا نسمع تلك المادية الجامدة الصارخة التي ينادي بها «فرانسيس بيكون»: «ليس العلم سوى انعكاس للواقع»[1]، أي لا يمكنكم أن تعيدوا النظر في العلم كما لا يمكنكم أن تعيدوه في الواقع، وهكذا، شيئا فشيئا يجذّر زعماء كلّ علم أو فن التمجيد لما يؤمنون به .

ومع هذا كان هناك في كلّ زمان رجال تسمو بهم الحقائق عن الوقوع في هذا الفخ الخفي، فينتبهون إلى أنّ الحياة أنبل من أن تقيّدها النظريات أو تحصرها القوانين أو ما يسمّى أحيانا «الخرائط الفكرية».

ذكر يوما أمام «ليوناردو دافينتشي» تجربة وصفت بأنها خادعة لكونها تعطي نتائج متغيرة، فقال: « إنّ التجربة لا تخدع أبدًا وتحليلاتنا وحدها هي الخادعة»[2]، أي: أن المبادئ التي استندنا إليها في تحليلاتنا غير كاملة، ولهذا فإن النتائج تبدو غير منطقية، والواقع أنّ الخلل فينا وليس في التجربة.

«نيكولاي سيميونوف» عالم في حقل الفيزياء الكيميائية، بعد سلسلة تجارب واختبارات في المعادلات اللامتناهية للتفاعلات، توصل إلى النتيجة الآتية: «إنّ العلم عمل موضوعي مطلق، وهو غير متحيّز في حد ذاته، ولكن البشر هم الذين يبتدعون العلوم، وهكذا تظهر وفي مسار عملية الإبداع تناقضات واضحة بين الموضوعية الشديدة للعلم وبين الخصائص

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 13 .

2- المصدر نفسه ـ ص 35 .

الذاتية للناس المبدعين له»[1].

برأيي أن «نيكولاي» في قوله هذا توصل إلى نصف الحقيقة وغاب عنه نصفها الآخر، ولكنه بالرغم من ذلك استطاع أن يقفز بنفسه على زانة النصف الذي أدركه فوق أسوار المحظورات الفكرية، وبذلك تمكّن من الإشراف على النصف الآخر.

النصف الملآن من كأس «نيكولاي» أنه أدرك أنّ العلوم هي عبارة عن إبداعات وابتكارات فكرية بشرية، وهذا يكفي للقول بعدم عصمتها من الخطأ أو التناقض، لأن البشر غير معصومين من ذلك. وأمّا النصف الفارغ من ذات الكأس فهو الاعتقاد الجازم بموضوعية العلم المطلقة وعدم تحيزها البتة.

لقد اكتشفت الفيزياء الحديثة أنّ جميع القياسات ما هي إلا تفاعلات تخلق (إحساسات) في وعينا، فالعلم الطبيعي كما يقول «هايزنبرغ»، لا يصف ويشرح الطبيعة ببساطة، إنه جزء من التفاعل المتبادل بين الطبيعة وذواتنا[2].

فإذا كانت الفيزياء الذرية أمّ العلوم الطبيعية لكونها تبحث في حقيقة المكونات الطبيعية وماهيتها، فإن هذه الفيزياء تخبرنا بحقيقة هائلة، وهي أنه لا يمكن للعالم أن يلعب دور الراصد الموضوعي المنفصل، بل يصبح مشمولًا في العالم الذي يرصده إلى حدّ أنه يؤثر في خواص الأجسام المرصودة. يرى «جون ويلر» أنّ هذا التشميل للراصد هو السمة الأهم

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 22 .

2- فيرتجوف كابرا ـ التصوف الشرقي والفيزياء الحديثة ـ ص 139 .

لنظرية «الكم» ولذلك اقترح استبدال كلمة «راصد» بكلمة «مشارك». فعلى حد تعبير ويلر: «لا شيء في مبدأ الكم أهم من هذا، إنه يحطم مفهوم العالِم بوصفه قابعًا هناك »[1].

إنّ الكون لن يكون بعدئذ هو نفسه أبدًا، لأنه لوصف حديث ما يتعين على المرء أن يلغي تلك الكلمة القديمة «راصد» وأن يضع في مكانها الكلمة الجديدة «مشارك»، بمعنى غير مألوف يكون الكون كونًا تشاركيًا .

إنّ السبب الذي دفع العلماء للتنازل عن مسألة الفصل بين «الذات والموضوع» أي بين «العالم والتجربة العلمية» التي يقوم بها، نتج من عجز العلماء عن فصل التأثير لأفكارهم عن التجربة التي يقومون بها، فإذا سأل العالم (الراصد أو المجرب) بينه وبين نفسه سؤلا وأراد أن يعرف جوابه، فإنَ الجسيمات الذرية ترتب نفسها بطريقة تتناسب مع الإجابة عن ذلك السؤال بالتحديد، فإذا غيّر العالم تفكيره وعَدَلَ إلى سؤال آخر فإن ذات الجسيم الذريّ يغير من شأنه بَحيث يعطي الراصد الإجابة عن ذلك السؤال الجديد، أي أنّ الطبيعية تستجيب لأسئلتنا، وبالتالي هي واقعة تحت تأثير تفكيرنا بنسبة احتمالية مجهولة، وعلى حد تعبير (هايزنبرغ) : «إنّ ما نرصده ليس الطبيعة ذاتها، بل الطبيعة المعرَّضة لطريقتنا في التساؤل»[2].

وهذا يعني أننا محدودون في اكتشافاتنا بحدود ما نقيّد به عقولنا أو بما نطلق لها فيه العنان، والنقطة الهامة التي يؤكدها العلماء هنا هي أنّ هذه المحدودية لا علاقة لها بنقص تقنيات القياس لدينا، بل هي محدودية

1- فيرتجوف كابرا ـ التصوف الشرقي والفيزياء الحديثة ـ ص 140 .
2- المصدر نفسه ـ ص 139 - 140 .

مبدئية متأصلة في الواقع الذرّي للطبيعة ، ويضرب علماء الذرّة لذلك مثلا فيقولون: إذا قررنا أن نقيس موقع الجسيم بدقّة، فإن الجسيم ببساطة لا يكون له عزم معرّف تعريفًا جيدًا، وإذا قرّرنا أن نقيس العزم، فإنه لا يكون له موقع معرّف تعريفًا جيدًا، فالراصد حين يقرّر كيف يهيئ أجهزته لقياس العزم أو الموقع فهذا الترتيب سوف يحدد ـ إلى حد ما ـ خواص الجسيم المرصود، وإذا عُدِّل الترتيب الاختباري فإن خواص الجسم المرصود سوف تتغير بدورها[1].

وهذا يدل على أنّ القوانين ليست متأصلة في الطبيعة، بل مفروضة عليها عن طريق الفكر.. وهذا ما يزلزل عرش الفصل بين الذات والموضوع، ويعطي تفسيرًا مغايرًا تمامًا لما كان يسمّى بانتصار العلم على الدين أو انتصار المادة على الروح، فواقع الحال وفق المكتشفات العلمية أنّ الموضوع لا ينفصل عن الذات قيد أنملة، بل أنّ الموضوع انتقل من كهنوت اللاهوت الموغل بالخرافة إلى كهنوت المادية الموغلة بالجفوة.

إنّ فكرة (المشاركة بدلًا من الرصد) لم تتم صياغتها في الفيزياء الحديثة إلا مؤخّرًا، لكنها فكرة معروفة جيدًا لأي دارس للتصوف، فالمعرفة الصوفية لا يمكن تحصيلها أبدًا بمجرد الرصد، بل فقط عن طريق المشاركة التامة بكل كينونة المرء، لهذا فإنّ مفهوم المشارك حاسم لرؤية العالِم الصوفي، وقد دفع الصوفية بهذا المفهوم إلى أقصاه، إلى نقطة يكون فيها الراصد والمرصود، الذات والموضوع ليسا فقط غير قابلين للانفصال، بل يصبحان أيضًا غير

1- فيرتجوف كابرا ـ التصوف الشرقي والفيزياء الحديثة ـ ص 140 .

قابلين للتفريق، فالصوفيون لا يكتفون بوضع مناظر للفيزياء الذرية، حيث الراصد والمرصود لا يمكن فصلهما، بل يمكن مع ذلك تمييزهم. إنهم يذهبون أبعد من ذلك، وفي التأمل العميق يصلون إلى نقطة ينهار عندها التمييز بين الراصد والمرصود تمامًا، حيث تنصهر الذات والموضوع في كلّ لا تمايز فيه خلال ما يصطلحون على تسميته «التجربة الروحية». جاء في كتاب الطريقة العلية القادرية الكسنزانية: «الأساس الأول في الطريقة هو تجربة روحية لا تخضع إلى العقل المنطقي وفيها تتحد الذات والموضوع وتقوم فيها البوادر واللوائح واللوامع مقام التصورات والأحكام والقضايا في المنطق العقلي؛ إذ المعرفة فيها مُعاشَةٌ لا متأملَة، ويغمر صاحبها شعور عارم بقوة تضطرم فيه وتغمره كفيض من النور الباهر أو يغوص فيها كالأمواج العميقة، ويبدو له أيضًا أن قوى عالية قد غزته وشاعت في كيانه الروحي، وما هذا إلا نفحات روحية علوية، ولهذا يشعر السالك بإثراء في كيانه الروحي، وتحرر في أفكاره وخواطره، وهيجان لطاقات كامنة تغور في أعماق نفسه»[1].

ما يراه الصوفية في هذا الجانب هو أنّ المعرفة لا يمكن أنْ تكون كلّية يقينية ما دام هناك خط وهمي يفصل بين الذات والموضوع عند العالم الطبيعي أو العالم الديني على حد سواء، لأن هذا الفصل يدل عند الصوفي على نقص في إدراك التداخل الحيوي بين جميع المكونات في الوجود.

إنّ الصوفية وإنْ كانوا يثبتون الكثرة الظاهرية، أي تكثّر الأجناس

1- الشيخ محمد الكسنزان ـ الطريقة العلية القادرية الكسنزانية ـ ص 75 .

والعناصر الموجودة في الطبيعة وتمايز كلّ جنس عن الجنس الآخر بخصائص معينة، إلا أنهم يؤكدون أنّ هذا التكثّر واقع في المظاهر الصورية فقط، أما الحقيقية الروحية لجميع تلك الكثرة الخلقية فهي حقيقية واحدة، يصطلح بعضهم على تسميتهاـ (حقيقة الحقائق الكلية) ويسميها البعض الآخر (الحقيقة المحمدية) أو غير ذلك من التسميات الدالة على المفهوم ذاته. مثالها مثال الماء الظاهر بصور وخصائص مختلفة وهو حقيقة واحدة، فمن صوره الثلج والوفر* والبخار والبَرَد، فإذا كان علماء الطبيعة قد جرّدوا الإنسان من البعد الروحي، وعدّوه جزءًا ماديًا لا يختلف في شيء عن بقية الأجزاء المادية للطبيعة، فإنّ الصوفية خالفوهم في هذا الرأي من وجهين:

الأول: من حيث إنّ جسمانية الإنسان مكوّنة من نفس العناصر الموجودة في الطبيعة التي تشترك فيها جميع المخلوقات بنسب متفاوتة .

والثاني: من حيث الجانب الروحي، إذ إن الصوفية لم يقفوا عند حدّ الترابط الماديّ، بل قالوا بالجانب الروحي للإنسان، وكذلك لجميع الكائنات بمستويات متفاوتة، وأيضا قالوا بالتواصل الروحي بين الجميع، على الرغم من عدم إحساس الإنسان العادي بهذا التواصل ـ بين الذات والموضوع ـ على المستويين المادي والروحي . ولتوضيح المسالة أكثر نقول على سبيل المثال:

إنّ الناظر إلى الحواس في الإنسان يجدها تتكون من عناصر متعددة كالعين والأذن واللسان والأنف والجلد، وكل عنصر من هذه العناصر ـ إذا

* الوفر هو نديف الثلج الأبيض اللاسع، الذي ما أن يلامس الكف المبسوطة حتى يتحوّل إلى قطرات صافية نقيّة .

جاز التعبير ـ له خصائصه العضوية التي يتحدد بها مجال عمله على نحو لا يتعدى المجال العلمي لعنصر آخر ، فالأذن بطبيعة وظيفتها العنصرية مجالها السمع، ولا يمكن أن تتعداه إلى النطق أو الشم، والأنف بطبيعته العنصرية مجاله الشم، ولا يمكن أن يتعداه إلى السمع أو البصر.. وهكذا بقية الحواس. كما أنّ كلّ عنصر من هذه العناصر لا يتأثر في فاعليته ببقاء العنصر الآخر أو بزواله، فقد تتعرض الأذن للصمم، فيفقد الإنسان حاسة السمع فحسب دون أن يؤثر ذلك في حاسة البصر أو غيرها من الحواس الأخرى. وبنفس الطريقة يمكن تعميم هذا المثال الذاتي على المستوى الموضوعي، بمعنى أنك تجد في العالم الطبيعي كلّ مخلوق له استقلاليته العنصرية عن بقية الكائنات، وإنّ موت أحد المخلوقات أو إصابته بعاهة أو فناء شيء من الأشياء لا يؤثر في البقية الباقية تأثيرًا عنصريًا.

هذا هو المنظار المادي الذي يقول به علماء الطبيعة، ويضعونه شرطًا موضوعيًا لموضوعية العلم، أمّا عند الصوفية فإنّ كلّ هذه الكثرة المخلوقة والتكثّر في العناصر المكوّنة للإنسان أو للطبيعة لا تعدو أن تكون كثرة قائمة في الجانب الظاهري من الوجود، أي كثرة تنطبق قوانينها على المستوى المادي المحسوس والملموس فحسب. فهناك الجانب الروحي الذي لا يخضع لهذه القوانين المادية الصارمة، ففي ذلك المستوى تفنى حدود الفصل والتجزئة بين الصفات العنصرية.. ففي الإنسان مثلا، فإنّ حياة كلّ عناصر البناء الحسي (الحواس) والعقلي قائمة بالروح في كينونة الذات الإنسانية، والروح مطلقة عن التحيز بصفة محددة بعينها، إذ فيها تتماهى[1] جميع صفات الحواس، فلا

1- المماهاة والتماهي هو: التمازج أو الترابط أو الانصهار بين شيئين وجعلهما واحدًا .

يختص جزء من الروح بوظيفة حسيّة محددة، لأنها أصلا غير مجزّئة، لكونها كلّ في كلّ. ففي الروح تسري الصفات بعضها في بعض، فتسمع العين، وتنطق الأذن، ويشاهد اللسان، حتى ليستدعي مُدرِك الحاسة الواحدة مُدرَكات جميع الحواس في آن واحد، ذلك لأنّ الذات بحسب هذا المستوى تكون على بساطتها[1]وإطلاقها غير المقيدة بالمدارك الحسية ولا بالخبرات العقلية ولا بالمكونات الثقافية ولا بالدوافع الغريزية، ونسبية ذلك كله: الذات في هذا المستوى تواجه الجسم الإنساني بما هي عليه من كونها جوهرًا كلّيًا واحدًا، هو السمع الذي يسمع، وهو الذي يبصر وهو الذي يتصور، بكلّيته كلّه، حيث «تصير كلّ شعرة منه سمعًا وكل ذرة منه بصرًا، فيسمع الكلّ في الكلّ، ويبصر الكلّ بالكلّ»[2]، وحيث تكون قد «امتزجت الأعمال القلبية والقالبية وانخرق الظاهر إلى الباطن والباطن إلى الظاهر»[3]، وعن هذا يقول الشيخ الجنيد البغدادي: «إذا فنى الفناء عن أوصافه، أدرك البقاء بتمامه»[4]، ويقول: «الفناء استعجام كلّك عن أوصافك، واستعمال الكلّ منك بكلّيتك»[5]. وبنفس المنظار ينظر للروح الكلّية التي تمد الطبيعة وكلّ ما فيها بالحياة «حيث تدخل الأشياء في حركة تآلف حيوي حر تتعانق فيها

1- انظر : عاطف جودة نصر ـ شعر ابن الفارض ـ ص 297 ، وكذلك : عبد الخالق محمود - شعر ابن الفارض في ضوء النقد الأدبي الحديث ـ ص 80 .

2- السهروردي ـ عوارف المعارف ، حاشية إحياء علوم الدين للغزالي ـ ج1 ص 220 .

3- المصدر نفسه ـ ج2ص 26 .

4- السراج الطوسي ـ اللمع ـ ص 285 .

5- المصدر نفسه ـ ص285 .

الأطراف والمتفرقات على نحو يستجيب لنداءات العالم الكلّي الباطن من الذات في احتضانه لأسرار الحقيقة المطلقة»[1].

إنّ الروح عند الصوفية ليست قابعة في مكان معيّن من جسم الإنسان، فالروح هي قوام الحياة لكل خلايا البناء العضوي في الإنسان حسّـًا وعقلا، وليس ثمة من خلايا الكيان الإنساني ما يحيا بدون الروح، كما أنّ الروح لم تكن لتعبّر عن نفسها بدون الحسّ، فالروح ليست نقيض الحسّ، كما أنّ الحسّ ليس نقيض الروح، بل بالعكس الروح هي حياة الحس، والحس هو الشكل الذي تتمظهر من خلاله قوى الروح، ولهذا يقول السراج الطوسي: «ما دام في العبد روح وهو حي لا يزول عنه الحس، لأن الحس مقرون بالحياة والروح»[2]، وما يقال عن التواصل التفاعلي بين المادة والروح في جسم الإنسان يقال مثله عن مادية الطبيعة وجانبها الروحي ـ مع الفارق ـ وبهذا ننتهي إلى ما يلي :

أولاً: إنّ الذاتي ممثّلاً بالروحي، والموضوعي ممثّلاً بالمادة سواء أكانا في الإنسان والطبيعة على حد سواء، متداخلان متواصلان غير منفصلين.

ثانيًا: هذا التداخل والتواصل لا ينحصر عند حدود الجسم الإنساني بمعزل عن الطبيعة (العالم)، فكما أنّ هناك مستوى تتواصل فيه ذات الإنسان مع موضوعة (المكوّنات المادية الجسدية) فإنّ الطبيعة كذلك بما هي عليه موضوعية تتناسب مع ذاتها، ومن جهة أخرى فإن التواصل موجود

1- علي الحضرمي ـ التجربة الصوفية طريق المعرفة ـ ص 60 .

2- السراج الطوسي ـ اللمع ـ ص553 .

بين ذات الإنسان وذات الطبيعة، وبين موضوع الإنسان وموضوع الطبيعة، وكذلك بين ذات الإنسان وموضوع الطبيعة، وبين موضوع الإنسان وذات الطبيعة.

ثالثا: العارف عند الصوفية هو من يصل إلى مشاهدة هذا التواصل بشكله الحي المتفاعل الواعي، فتتفاعل ذاته مع الذات الكلّية وموضوعه مع الموضوع الكلّي، فيعرف كلّ شيء في الوجود كما يعرف كلّ شيء في نفسه، لا فرق بين نفسه والنفس الكلّية، ولا بين موضوعه والموضوع الكلّي (الخارجي) .

وجاء في «الاوبانيشادات»: «حيث يوجد واحد يتذوق آخر ... لكن حيث كلّ شيء أصبح هو ذاته ، عندئذٍ من أين ومن سيرى الواحد ؟عندئذٍ من أين ومن سيشم الواحد ؟عندئذٍ من أين ومن سيتذوق الواحد ؟[1].

هذا هو إذن الإدراك النهائي لوحدة كلّ الأشياء، يتم بلوغه ـ كما يخبرنا الصوفية ـ في حالة من الوعي تتحلل فيها فردية المرء [متحوّلة] إلى توحّد لا متمايز، حيث يتم تجاوز الحواس ويتم تخطي مفهوم (الأشياء) . وعلى حد تعبير تشوانغ تزو: «تنقطع صلتي بالجسد بأجزائه، تنبذ أعضائي الإدراكية الحسية، لهذا وأنا أترك شكلي المادي وأقول وداعًا لمعرفتي، أتوحّد مع المتحلّل العظيم، هذا ما أدعوه الجلوس ونسيان كلّ الأشياء »[2] .

لقد أبطلت نظرية الكم مفهوم الأجسام المعزولة أساسًا، وأدخلت

1- فيرتجوف كابرا ـ التصوف الشرقي والفيزياء الحديثة ـ ص 141 .
2- المصدر نفسه ـ ص 141 .

مفهوم المشارك ليحلّ محلّ مفهوم الفصل.. أي صارت تنظر إلى الكون كشبكة مترابطة من العلاقات الجسدية والعقلية لا تُعرَّف أجزاؤها إلاّ من خلال صلاتها بالكل.

لنلخّص رؤية العالم المنبثقة عن الفيزياء الذرية، فإنّ كلمات البوذي التنتري «لاما أناغريكا غوفيندا» تبدو ملائمة تمامًا بشكل مثالي: «البوذي لا يؤمن بعالم خارجي يوجد مستقلًا أو بشكل منفصل، يمكن أن يدخل نفسه في قواه الدينامية، فالعالم الخارجي وعالمه الداخلي هما بالنسبة له ليسا سوى وجهين للقماشة نفسها، تكون فيها خيوط كلّ القوى وكل الأحداث، كلّ أشكال الوعي وكل موضوعاتها، منسوجة في شبكة لا تنفصل من العلاقات اللامنتهية، المتبادلة الاشتراط »[1].

وإذن، فلا دور للعلم في حياتنا إلا «محاولة لتنظيم الجوانب المتعددة لتجربتنا الحسية في منظومة موحدة من الأفكار»[2] كما يقول ألبرت أينشتاين.

1- فيرتجوف كابرا ـ التصوف الشرقي والفيزياء الحديثة ـ ص 141 - 142 .
2- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص7 .

هل للخيال صورة في المرآة ؟

«الخيال أكثر أهمية من كلّ الحقائق في العالم»

البرت اينشتاين

قمّة الجبل الجليدي التي تظهر فوق سطح البحر لا تمثل إلا خمس الجبل الحقيقي القابع تحت السطح والممتد إلى أعمق أعماق البحار أو المحيطات.. وإذا جاز لي التشبيه فإنني أقول: إن العقل بكل ما يتسم به من منطق ونظام وعقلانية وتوازن وصفاء ليس إلا قمة لجبل الخيال القابع في باطن الإنسان.

الخيال جبل عظيم يقبع تحت السطح، حيث الباطن، وفيه كلّ شيء وضده، فيه المعقول واللامعقول، وفيه المقبول واللامقبول، فيه الحقيقة والأوهام، وفيه العلوم والأساطير، فيه العبقرية وفيه الجنون.. أكاد أقول إنّ الخيال حطّم أسطورة المستحيل، إذ لا مستحيل في الخيال. من هنا قال بعضهم وما أخطر ما قال: ليس العقل مركز الفكر وإنما الخيال.

ترى ما مدى مصداقية ذلك؟

الشائع أنّ الخيال مجرد حكايات وهمية جميلة ليس لها في الواقع أدنى نصيب، وفي الأغلب تتعلق تلك الحكايات بالعوالم الأخرى بكل ما فيها من غرائب وعجائب لا تمتّ لعالمنا المحسوس بصلة، كتلك التي نسمع عنها في حكايات (ألف ليلة وليلة) أو (كليلة ودمنة)..

قبل حوالي 130عامًا، كان «دي ساوتولا» الهاوي اقتفاء الآثار والتنقيب عنها، يدخل إلى كهف مخفي موحش في «التاميرا» جنوب إسبانيا مع ابنته الصغيرة مدفوعًا بفضوله ورغبته في الاكتشاف. فوجيء بابنته ماريا تصرخ: «بابا: انظر هناك لوحات من الثيران»، بعد أعوام قليلة مات «دي ساوتولا» في حزن وكمد لاتهامه بتزوير اللوحات المرسومة والمنحوتة على جدران الكهف التي سُميت فيما بعد «ثيران التاميرا»، ولكنه حَظي بعد موته بتكريم كبير، حين تأكد أنّ عمر اللوحات المنحوتة يعود إلى خمسة عشر ألف عام للوراء... يبدو الخيال وكأنه وجد مع الإنسان منذ خلْقه ونشأته ومنذ أن تشكّل وعيه بذاته وبما حوله.

أنا كنت واحدًا ممن إذا سمع بكلمة خيال، يتبادر إلى ذهني أفلام الخيال العلمي، وأفلام الكارتون، خاصة تلك التي تتعلق بالعوالم والمجرّات، مثل كارتون فارس الفضاء والغواصة الزرقاء وما إلى ذلك. بينما من وجهة نظر عالم الجيوكيمياويات الروسي «الكسندر فيرسمان» فإن الخيال هو الشرط الأول الذي ينبغي أن يتمتع به العالم وإلا لم يكن علمه مثمرًا، فيقول: «ينبغي وقبل كلّ شيء أن يمتلك العالم خيالًا خصبًا، لأنّ الخيال يلعب دوره في العلوم كما يلعب دوره الحاسم في الفنون»[1].

ما يشير إليه «فيرسمان» دقيق جدا، إذ إنه يلمّح إلى أنّ المنطق وحده غير كافٍ في العملية، العلمية كما أنّ الإحساس غير كافٍ وحده في الفن، والقاسم المشترك بينهما الخيال.

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 31 .

وهذا الرأي يؤيده مؤسس البيولوجيا الجزئية الهنغاري «البرت سانت ديوردي» حين يقول: «نادرًا ما توجّه البحوث وفقًا للمنطق، فهي في أغلب الأحيان تجد نفسها مسيّرة بفعل التلميحات والافتراضات والحدس... إن النسيج الرئيسي للبحوث هو الخيال الذي تتشابك فيه خيوط التحليل والقياس والحساب»[1].

لا شك أنّ الأمر قد التبس على من يتنكّرون لطاقات الخيال الخلاّقة، ذلك أنهم رأوا أنه جامع لكل شيء فظنوا أنه مستودع الهوس، غافلين عن أنّ كلّ شيء في الحياة أشبه ما يكون بالسلاح ذي الحدين، يمكن أن ينفع بقدر ما يمكن أن يضر، وأن معيار التقييم هو في طريقة الاستخدام أو التوظيف، خذ على سبيل المثال عود الثقاب، يمكن أن توقد به النار لغرض التدفئة أو الطبخ أو المنافع الأخرى، كما يمكن أن يستعمل لإشعال الحرائق المدمرة..

أذكر مرة أنني سمعت في الأخبار أنّ شخصًا تعرّض للتسمّم بسبب أنّه شرب كميه كبيرة من المياه في مسابقة أجرتها إحدى القنوات الأمريكية المحلية.. تعجبت حينئذٍ كيف يمكن أن يصبح الماء وهو الذي جُعِل منه كلّ شي حّي مادة سامة إذا ما أسيء استعماله؟ وهذه سنّة الحياة ونوامَيسها عمومًا.

كذلك الخيال هو في حقيقة الأمر طاقة هائلة في الإنسان، يمكنه أن يهملها أو يزدريها وعندئذٍ لن يشعر بفائدتها وربما لن يشعر بها أصلا، ولكن

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 23 .

من جهة أخرى يمكنه أن يستثمرها وأن يستفيد منها إلى أقصى حدودها، واللطيف أنها إمكانية لا حدود لها البتة .

يقول العالم الروسي «نيكولاي بيروغوف»: «إنّ كلّ ما هو عظيم ورائع في حياتنا وفي حقول العلوم قد يكون بفعل الفكر ومساعدة الخيال ويمكن التأكيد بكل شجاعة أن «كوبرنيكوس» و«نيوتن» لم يتمكّنا من الوصول إلى مواقعهما العلمية التي يحتلّونها اليوم إلا بواسطة الخيال»[1].

ولعلّ من أقوى ما قرأته عن أهمية الخيال، التصريح الذي ذكره «أينشتاين» حين قال: «الخيال أكثر أهمية من كلّ الحقائق في العالم».

هذا العبقري يعلم تمامًا أهمية الخيال، لأنه يدرك كيف استفاد من هذه القوة الخلاّقة في أبحاثه ونظرياته التي هزّت عرش العلم حتى يومنا هذا، ويبدو أنّ سقراط قد توصل لهذه الحقيقة قبل أينشتاين بقرون عديدة حين قال: «إن المعرفة ليست العلامة الحقيقية للذكاء وإنما الخيال» .

في التصوّف انبرى الشيخ «ابن عربي» ليؤكد أنّ الحقائق الشهودية تثبت بأنّ الخيال هو الحضرة الحقيقية التي خلق منها كلّ ما هو موجود في الوجود، ومنها تتنزل جميع المعارف والعلوم على جميع الكائنات.

وقد شحذ أستاذ علم الاجتماع الدكتور المرحوم «علي الوردي» إمكاناته كلها ليؤلف كتابه الموسوم «خوارق اللاشعور» ليثبت فيه أنّ العقل الباطن أو اللاواعي هو المادة الخام لجميع المدارك والمفاهيم التي يستوعبها الإنسان،

1- د. أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 16 .

وأنّ لهذه الخلفية الباطنية تأثيرات عظيمة على تفكير الإنسان وسلوكه شعر بذلك أم لم يشعر وشاء ذلك أم أبى، وما يسمى باللاوعي هو مستودع الخيال ذاته.

إنّ إدراك ما لهذه القوّة الباطنة المتمركزة في الذات الإنسانية من طاقات خلاّقة، يختص به رجال قليلون في كلّ علم وفنّ، وهؤلاء بنظري هم ثلّة ممن تسامى تفكيرهم عن التفكير التقليدي، وأدركوا أنّ التفكير المنطقي هو جزء ضئيل من عالم التفكير اللامنطقي الذي ينطوي في ذاته على كلّ شيء.

باعتقادي أنّ هؤلاء لا يستغربون أن يكون للخيال صورة في المرآة .

أدرت له ظهري فوجدته أمامي

« ينبغي التشكّك في نتائج الأبحاث المختبرية
حتى ذلك الوقت الذي تقوم فيه المعطيات
بإجبارنا على الامتناع عن كلّ شك »[1]

لويس باستور

في واحدة من ليالي شتاء العام 1619 شديدة البرودة، وفي إحدى الثكنات العسكرية بمقاطعة «بافاريا» الألمانية التي كان يستخدمها قادة جيش الأمير ماكسيميليان البافاري ، جلس شاب هادئ الطباع رقيق الملامح في الثالثة والعشرين من عمره بجوار مدفأة خشبية عجوز مستدفئًا بها، ولمَّا سرى الدفء في أوصاله بدأ يفكر في بعض الأمور تفكيرًا عميقًا استغرق منه بضع ساعات، ولما أشرقت شمس اليوم التالي كان ذلك الشاب قد رسم في مخيلته الخطوط العريضة الأساسية لفلسفته ومنهجه العلمي شديدي التماسك والتنظيم وعظيمي الأثر في تاريخ الفكر والفلسفة اللاحق في حياته ومِن بعده.. لقد كان ذلك الشاب هو «رينيه ديكارت»، أحد أبرز الفلاسفة وعلماء الرياضيات عبر كلّ العصور، والمعروف بـ «الأب الروحي للفلسفة الحديثة»، وهو رائد من الرواد الثلاثة الكبار مع «اسبينوزا» و«لايبنيز»

1- د. أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 14 .

للمذهب العقلي في التفكير الفلسفي، وصاحب مدرسة الشك المنهجي، وواحد من الفلاسفة المحدثين القلائل الذين حاولوا صياغة مذاهب فلسفية وفكرية شاملة على طريقة الفلاسفة الإغريق القدماء.

في الجزء الرابع من كتابه «المقال في المنهج» ذكر ديكارت عبارته الشهيرة: «أنا أفكر إذن فأنا موجود»، تلك العبارة التي يرى كثيرون من المهتمين بتاريخ الفلسفة أنها كانت تلخِّص مبادئ فلسفة ديكارت الإجمالية تلخيصًا بليغًا.

كان منهج ديكارت الفلسفي يقوم على مبدأ الشك والتحرُّر الكامل من كلّ المسلَّمات والموروثات «الصندوقية» التي يأخذها أغلب الناس ويتقبَّلونها بلا تفكير أو تمحيص لمجرد أن أسلافهم قد اقتنعوا بها ونقلوها إليهم.

كان ديكارت يكره التسليم بأي نتائج أو آراء قبل أن يُخضِعها أولًا لمعايير منهجه المتشكك ، ذلك المنهج الذي اختصره في أربع قواعد أساسية هي:

أولاً: ألا نقبل أي شيء منذ البداية سوى الأفكار الواضحة والمتميزة.

ثانيًا: أن نقسّم كلّ مشكلة إلى عدد من الجزيئات الأصغر التي يمكن حلها.

ثالثًا: أن نسير في تفكيرنا من البسيط إلى المعقد أو المركب، مفترضين وجود ترتيب ومنطق حتى حين لا يوجد الأخيران فعلًا.

رابعًا: أن نقوم دائمًا بالمراجعات لما سبق لنا أن توصلنا إليه كي نتأكد من أننا لم نغفل شيئًا.

يمتاز الشك المنهجي لديكارت بأنه ليس نهاية العقل الفلسفي بل هو البحث عن نقطة البداية، النقطة التي يصح للفيلسوف أن يبدأ عندها، فالشك هو التأمل الأول للفلسفة، ومن خلاله وصل إلى مبدأ «الكوجيتو» وهو : «أنا أشك إذا أنا أفكر، وأنا أفكر إذا أنا موجود»، ومعناه: الإنسان يشك ومادام هو يشك فهو يفكر، لأن الشك نوع من أنواع الفكر، وطالما هو يفكر فهو ليس معدومًا إذن فهو موجود حتما.

وتساءل ديكارت: «كيف يمكننا أن ندّعي أننا لسنا موجودين حين نشك في الأشياء جميعا ؟ »، وهكذا أسّس هذا الفيلسوف الفرنسي لمنهج غير مألوف ولا تقليدي لخّصه بقوله: « ينبغي من أجل البحث عن الحقيقة وبقدر الإمكان وضع كلّ شيء ولو لمرة واحدة موضع الشك»[1]. وهو تعبير دقيق، بل هو في منتهى الدقة إذا ما لحظنا فيه استعمال عبارة (كل شيء) وذلك لأنها تدل على عدم استثناء شيء من الشك حتى ولو كان ذلك الشيء يقينيا إلى أبعد ما يمكن أن يتصوره العقل أو يعتقد به صاحب الإيمان..

إنني شخصيا أؤيد هذا الرأي إلى حدّ ما، ولم لا، فإن كان ما أشك فيه يقينيا فإنه سيؤكد يقينيته، وإن كان غير ذلك زيفه سينكشف لي..

1- د. أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 21 .

حي على الانقلاب

«التوبة: هي أن تبدل بدل الجهل العلم، وبدل النسيان الذكر، وبدل المعصية الطاعة» [1]

الشيخ سهل التستري

أنا كنت من الطلبة الذين لا يستلطفون درس الرياضيات أبدا، وكنت خلال الدرس أعدّ الدقائق لينتهي، وكل فترة وأخرى أسرق نظرة من شباك الصف إلى الساحة ، وكأنها عالم الحرية من هذا السجن الثقيل ..

واستمر الحال على هذا المنوال حتى اضطر أهلي في إحدى السنوات إلى أن يجلبوا لي مدرّسًا خصوصيًّا لينقذني من هذا البؤس الذي طال أمده..

وبالفعل جاء المدرس لمنزلنا وأخذ يشرح لي المادة، كان أول ما لفت نظري هو هدوءه الكبير وسلاسة تعامله من الأرقام والحروف والخطوط وكأنه يتحدث عن شيء ممتع ويسير..

لم يمض على ذلك سوى بضعة دروس حتى وصلنا لموضوع يتناول فيه مادة (نقطة الانقلاب) في الرياضيات، وقال إنها النقطة الفاصلة بين التقعر والتحدّب، ولما كانت كذلك فهي تنتمي لكل منهما، فهي من وجه تعود

1- الشيخ سهل التستري ـ تفسير القرآن العظيم ـ ص 103 .

للتحدّب ومن وجه تعود للتقعّر، إنها المنطقة الحرجة التي تتغير فيها الأمور وتنقلب المعطيات رأسا على عقب، إنها لحظة التغيير (من ـ إلى) ...

كانت هذه أول نقطة أحبها في الرياضيات ومنها كانت انطلاقتي لفهم هذا العلم والتعامل معه ليس بعقلي فقط بل بوجداني أيضا، وبالمناسبة حصلت على درجة 83% بعد أن كنت لا احصل على درجة 45% إلا بشق النفس .

لقد أحدثت (نقطة الانقلاب) انقلابا في حياتي العلمية لأنها فتحت أمامي آفاق التعامل مع بقية العلوم بنفس الطريقة، ومنها انتقلت إلى تجارب الحياة، فكنت وما زلت أشهد التحولات الجذرية والكلية في حياتي بين فترة وأخرى، وقد تصل تلك الانقلابات إلى الانتقال من النقيض إلى النقيض.

وقد سرني أن شخصًا ذا مكانة علمية مرموقة كأينشتاين تحدث عن مفهوم الانقلاب الذي أقول به في المجال العلمي، وكيف أن تثبيت المسلّمات (المعطيات) في العلم هو من الأخطاء التي قد تعطّل الحركة العلمية قرونًا عديدة، فقال: «تكتسب المفاهيم التي تجلت فائدتها في ترتيب الأمور، بفضلنا وبسهولة سلطة تنسينا منشأها الدنيوي وتجعلنا نقبلها كمعطيات ثابتة وتصنف حينئذ كـ (ضرورة منطقية)، (معطاة قبليا) .. الخ.

ولطالما وقفت هذه الأخطاء حجر عثرة ولأمد طويل في طريق التقدم العلمي، وليست ممارسة تحليل المفاهيم المقبولة منذ زمن طويل وكذا تبيان الظروف التي تبررها وتتيح استعمالها وكيف نشأت من المعطيات التجريبية، أمورًا لا طائل منها، لأننا نقضي بذلك على سلطانها الهائل.

فنلغيها [أي المسلمات] إذا لم يعد من الممكن تبريرها ونقوّمها إذا ما

تضاءل تطابقها مع الواقع كثيرًا ونستعيض عنها بأخرى إذا أمكن إقامة أنظمة جديدة تبدو لنا مفضلة لسبب أو لآخر[1].

لنأخذ على سبيل المثال «ابن الهيثم» ونظريته في الرؤية، فقد أحدث انقلابا كليا في علم البصريات حين توصل إلى أن الرؤية تنشأ من انبعاث الأشعة من الجسم إلى العين التي تخترقها الأشعة، فتُرسم على الشبكية وينتقل الأثر من الشبكية إلى الدماغ بواسطة عصب الرؤية، فتتكون الصورة المرئية للجسم. وبذلك أبطل النظرية اليونانية لكل من «إقليدس» و«بطليموس»، التي كانت تقول إن الرؤية تحصل من انبعاث شعاع ضوئي من العين إلى الجسم المرئي .

ولننظر إلى تصور «نيوتن» لبُنية الكون المادية وكيفية نشأتها، فيقول: «وبالنظر إلى كلّ هذه الأمور فإنه يبدو لي من المحتمل أن الإله في البداية كوّن المادة على صورة جزيئات صلبة، ذات كتلة قاسية بحيث يستحيل اختراقها ومتحركة. ولهذه الجزئيات أبعاد وأشكال وخواص فضاية أخرى تجعلها الأكثر ملاءمة بالنظر إلى الغاية التي صُوّرت من أجل تحقيقها. إنها صلبة إلى حد يستحيل معه تآكلها أو تكسيرها إلى أجزاء، ذلك أنه ما من قوة تستطيع تقسيم ما فعله الرب بالذات في الخليقة الأولى... وهكذا يمكن للطبيعة أن تسديم ولا يقع التغيير في الأشياء المجسّدة إلا في تفرقها وتجمّعها من جديد وفي حركة هذه الجزئيات الدائمة»[2].

1- أنشتاين ـ المجلة الفيزيائية 1916-1917 ـ ص101.

2- أنظر : الفيزياء ونظرية المعرفة (الابستمولوجيا) ـ د محمد البغدادي ـ موقع قاسيون على النت .

وكيف انقلب العلم على هذه النظرة كليًّا (من التقعّر إلى التحدّب) إذا جاز التعبير، فقد بات ثابتًا علميا أنّ نظرية نيوتن حول الجسيمات الأولية الصلبة غير القابلة للانقسام ليس أكثر من خيال، ففي عام 1909م، وضع الفيزيائي النيوزيلندي «ارنست رذرفورد» نموذج البناء الأساسي للذرّة، وقَصَف هذا العالم الذرّات بجسيمات ألفا الناتجة عن نبضات إشعاعية، وقرّر على أساس مخطط انتشارها أنّ الذرات ليست كُتَلًا صلبة من مادة غير قابلة للانقسام كما كان يُعتقد، بل أنّ معظم كتلتها يتركز في جسيمات تقع في نواة مركزية محاطة بسحابة من إلكترونات متحرّكة، أخفّ وزنًا من جسيمات النواة. ولم ينشأ فهم حقيقي لطبيعة النواة حتى الثلاثينيات من القرن العشرين حين اتضح أنّ النواة نظام يتألّف من كرة من «البروتونات» وجسيمات لا تحمل شحنة كهربائية تسمى «النيوترونات».

ويُعتقد اليوم أنّ البروتونات والنيوترونات تتكون بدورها من كينونات أصغر منها تُعرف بالكواركات، ويعتقد كثيرٌ من علماء الفيزياء اليوم أنّ الإلكترونات والكواركات تتكوّن من عدد غير منتهٍ من «أوتار طاقة فائقة» وأنّ هذه الأوتار تخلق وتفنى في كلّ لحظة، يقول «ديفز باول» :«يعرف علماء الفيزياء ومنذ زمن بعيد أنّ المادة ليست شيئًا أزليًّا ودائمًا، إذ يمكن خلق المادة ويمكن إفناؤها، ولو تم تركيز ما يكفي من الطاقة فإن ذرات جديدة من المادة سوف تأتي إلى الوجود، ويمكن أن نتصور المادة كشكل من طاقة محتبسة. إن إمكانية تحوّل الطاقة إلى مادة يدلنا على أنّ الكون قد بدأ بدون

مادة مطلقًا وأنّ جميع المواد التي نراها اليوم قد تولّدت من طاقة الانفجار العظيم[1] (BIGBANG)» .

هل تلاحظ معي كيف حصل انقلاب تام على المفاهيم العلمية القديمة التي كان يُظن أنّ ليس وراءها وراء؟

فبعد أنْ كان يُعتقد أنّ بنية الكون جسيمات مادية صلبة صار يُعتقد أنّ بُنيته شحنات طاقوية لا تتسم بالصلابة.

وبعد أنْ كان يُعتقد بأنّ المادة لا تفنى ولا تُستحدث صار يعتقد بأن المادة تفنى وتخلق في كلّ لحظة.

وبعد أنْ كان يُظن أنّ المادة أصل الطاقة صار يُعتقد أنّ الطاقة أصل المادة.

أليس جميلا أنْ ندرك مفهومًا معيّنًا في علم ما، ثم نجد أنّ أثر هذا المفهوم في العلوم كلها؟إنّها حقا لأعجوبة الحياة.

في التصوّف، يحصل انقلاب عند الصوفية فيتركون الرسوم والأشكال والظواهر ليتّجهوا إلى المعاني والروحانيات والبواطن.. ولا يعني هذا أنهم ينكرون الظاهر، بل يرون أنّ الباطن لبٌّ والظاهر قشر، ولا ينفع قشرٌ بلا لُبّ.. ولكنهم إجمالًا، لا يتوقّفون عند المظاهر.

في التصوّف حدث انقلاب في المفاهيم، فقد أضيف بعد آخر لها، إذ لم يعد التفسير اللغوي كافيًا، لأنه يقف على مساحة واحدة من الجميع، وأمّا

1- باول ديفز ـ كتاب القوة العظمى ـ وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد ـ ص 26 .

التأويل فهو خصوصية ذاتية فردية لكل شخص، وبهذا يشترك مع الكلّ في العام وينفرد لنفسه بالخاص.

في المفاهيم العامة، دخلت النسبية التأويلية حتى على أوضح الأمور التي لا يختلف فيها اثنان، فعلى سبيل المثال: (التعرّي) هو في العرف العام (عيب أو حرام)!!.. وأمام الرسام (فن)!!.. وفي صالة الرقص (حرية شخصية) وعلى الشاطئ (رياضة) !!!..

ليس لمفهوم معنى ثابت في كلّ مكان أو زمان أو عند الجميع، لقد غزت نقطة الانقلاب كلّ شيء.. كلّ شيء .

أن ينقلب المرء على الدين أو المعتقد الذي يؤمن به فيكفر به ليؤمن بنقيضه تمامًا في لحظة حرجة من حياته.. فذلك برأيي من أصعب أنواع الانقلابات في الحياة كلها، وذلك لأنّ المعتقد يسري في وجدان ابن ادم كما يجري الدم في العروق ـ إذا جاز لي التعبير ـ فليس من السهل أن ينقلب الإنسان على نفسه وموروثه الاجتماعي وبيئته وتربيته بل وحتى على كبريائه واعتداده بنفسه في طرفة عين، ولكن وقائع مثل هذا الانقلاب كثيرة وكثيرة جدّا في الإسلام وعلى الأخص في زمن الرسالة.

كان عمر بن الخطاب قويًّا غليظًا شجاعًا ذا قوة فائقة و كان قبل إسلامه أشدّ عداوة لدين الله، وكان من أشدّ الناس عداوة لرسول الله، ولم يرقّ قلبه للإسلام أبدًا و في يوم من الأيام قرّر عمر بن الخطاب قتل سيدنا محمد (صلى الله عليه وسلم) فسنّ سيفه وذهب لفعل فعلته، وفي الطريق وجد رجلًا من صحابة رسول الله و كان يخفي إسلامه، فقال له الصحابي: إلى

أين يا عمر؟

قال عمر: ذاهب لأقتل محمدًا.

فقال له الصحابي: وهل تتركك بنو عبد المطلب؟

قال عمر للصحابي الجليل: أراك اتبعت محمدًا؟

قال الصحابي: لا، ولكن أبدأ بآل بيتك أولًا .

فقال عمر: من؟

قال: أختك فاطمة وزوجها اتبعا محمدًا .

فقال: أوَ قد فعلت؟

قال: نعم .

فانطلق عمر مسرعًا غاضبًا إلى دار سعيد بن زيد زوج أخته فاطمة رضي الله عنهاأ فطرق الباب، وكان خباب بن الأرتّ يعلم فاطمة وسعيد بن زيد القرآنأ وعندما طرق عمر الباب فتح سعيد بن زيد الباب فأمسكه عمر و قال له: أراك صبأت؟

فقال سعيد يا عمر: أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟

فضربه عمر وأمسك أخته فقال لها: أراك صبأتِ؟

فقالت يا عمر: أرأيت إن كان الحق في غير دينك؟فضربها ضربة شقت وجههاأ فسقطت من يدها صحيفة (قرآن) فقال لها ناوليني هذه الصحيفة.

فقالت له: أنت مشرك نجس اذهب فتوضأ ثم اقرأهاأ فتوضأ عمر ثم قرأ الصحيفة وكان فيها: ﴿طه. مَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لِتَشْقَى. إلا تَذْكِرَةً

لِّمَن يَخْشَى. تَنزِيلًا مِّمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى. الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى. لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَمَا تَحْتَ الثَّرَى﴾[1].

فاهتزّ عمر وقال: ما هذا بكلام بشر.

ثم قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنّ محمدًا رسول الله.

في لحظة وحيده اهتز فيها عمر فنبذ دين الآباء والأجداد، وعرّض نفسه لسخرية قريش وعداوتها. أَوَ ليس عجيبا ما تفعله نقطة الانقلاب فينا؟

وروى ابن اسحاق: أن أسعد بن زرارة خرج بمصعب بن عمير يريد به دار بني عبد الأشهل، ودار بني ظفر، وكان سعد بن معاذ ابن خالة أسعد بن زرارة فدخل به حائطًا من حوائط بني ظفر، فجلسا فيه، واجتمع إليهما رجال ممن أسلم.

وكان سعد بن معاذ، وأسيد بن حضير يومئذ سيّدا قومهما وكلاهما مشرك على دين قومه، فلمّا سمعا به قال سعد بن معاذ لأسيد بن حضير: لا أبا لك، انطلق إلى هذين الرجلين اللذين قد أتيا دارينا ليسفّها ضعفاءنا فازجرهما وانههما عن أن يأتيا دارينا، فإنّه لولا أن أسعد بن زرارة منّي حيث قد علمت كفيتك ذلك هو ابن خالتي، ولا أجد عليه مقدما.

قال: فأخذ أسيد بن حضير حربته ثم أقبل إليهما، فلما رآه أسعد بن زرارة قال لمصعب بن عمير: هذا سيّد قومه قد جاءك، فاصدق الله فيه.

قال مصعب: إنْ يجلس أكلمه.

1- طه : 6 .

قال: فوقف عليهما متشتّما، فقال: ما جاء بكما إلينا تسفّهان ضعفاءنا؟ اعتزلانا إن كانت لكما بأنفسكما حاجة.

فقال له مصعب: أوَ تجلس فتسمع فإن رضيت أمرا قبلته، وإن كرهته كُفّ عنك ما تكره؟

قال: أنصفت، ثم رَكَزَ حربته وجلس إليهما، فكلّمه مصعب بالإسلام وقرأ عليه القرآن فقالا: فيما يذكر عنهما: والله لعرفنا في وجهه الإسلام قبل أن يتكلم في إشراقه وتسهّله ثم قال: ما أحسن هذا الكلام وأجمله، كيف تصنعون إذا أردتم أن تدخلوا في هذا الدين؟

قالا له: تغتسل فتطهّر وتطهر ثوبيك، ثم تشهد شهادة الحق ثم تصلي.

وهكذا حدث الانقلاب لأسيد بن حضير، فقام فاغتسل وطهر ثوبيه وتشهد شهادة الحق ثم قام فركع ركعتين ثم قال لهما: إن ورائي رجلا إن اتبعكما لم يتخلّف عنه أحد من قومه وسأرسله إليكما الآن سعد بن معاذ، ثم أخذ حربته وانصرف إلى سعد وقومه وهم جلوس في ناديهم، فلما نظر إليه سعد بن معاذ مقبلا، قال: أحلف بالله لقد جاءكم أسيد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم.

فلما وقف على النادي قال له سعد: ما فعلت؟

قال: كلّمت الرجلين فوالله ما رأيت بهما بأسًا، وقد نهيتهما فقالا: نفعل ما أحببت، وقد حدثت أن بني حارثة قد خرجوا إلى أسعد بن زرارة ليقتلوه وذلك أنهم قد عرفوا أنه ابن خالتك، ليخفروك.

قال فقام سعد مغضبًا مبادرًا، تخوّفًا للذي ذكر له من بني حارثة فأخذ

الحربة من يده ثم قال: والله ما أراك أغنيت شيئا، ثم خرج إليهما، فلما رآهما سعد مطمئنين عرف سعد أن أسيدا إنما أراد منه أن يسمع منهما، فوقف عليهما متشتما، ثم قال لأسعد بن زرارة: يا أبا أمامة لولا ما بيني وبينك من القرابة ما رمت هذا مني، أتغشانا في دارينا بما نكره.

وقد قال أسعد بن زرارة لمصعب بن عمير: أي مصعب جاءك والله سيد مَنْ وراءه من قومه إن يتبعك لا يتخلف عنك منهم اثنان.

قال: فقال له مصعب: أو تقعد فتسمع فإن رضيت أمرا ورغبت فيه قبلته، وإن كرهته عزلنا عنك ما تكره؟

قال سعد: أنصفت، ثم ركز الحربة وجلس فعرض عليه الإسلام وقرأ عليه القرآن، فأسلم من فوره كما فعل صاحبه.

ثم أقبل عامدًا إلى نادي قومه ومعه أسيد بن حضير، قال: فلما رآه قومه مقبلا، قالوا: نحلف بالله لقد رجع إليكم سعد بغير الوجه الذي ذهب به من عندكم فلما وقف عليهم قال : يا بني عبد الأشهل كيف تعلمون أمري فيكم؟

قالوا: سيّدنا وأفضلنا رأيًا، وأيمننا نقيبة.

قال: فإنّ كلام رجالكم ونسائكم عليّ حرام حتى تؤمنوا بالله وبرسوله.

قالا: فوالله ما أمسى في دار بني عبد الأشهل رجل ولا امرأة إلا مسلما ومسلمة ورجع أسعد ومصعب إلى منزل أسعد بن زرارة فأقام عنده يدعو

الناس إلى الإسلام حتى لم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون.

أليس عجيبا تأثير الانقلاب في القلوب والنفوس؟!

عند أستاذة السلوك والتربية الروحية، أي: الصوفية نجد تجلّيات الانقلاب واضحة في الأقوال والأفعال وحتى الأحوال.. ونقطة الانقلاب عندهم تتمثل في مقام متفق عليه بينهم على كثرة طرقهم ومشاربهم، وهذه النقطة تسمى «مقام التوبة». في هذا المقام يجب أن ينقلب الإنسان تمامًا على ما كان عليه قبل التوبة وبحسب مستواه أو مرتبته الروحية، فالتوبة لقوم هي انقلاب في الأفعال، يخبرنا عن ذلك الشيخ سهل بن عبد الله التستري فيقول: «التوبة: تبديل الحركات المذمومة بالحركات المحمودة» [1]، وهي لقوم انقلاب على المفاهيم ودرجات الطاعة، يقول «التستري»: «التوبة: هي أن تبدّل بدل الجهل العلم، وبدل النسيان الذكر، وبدل المعصية الطاعة» [2] وهي لقوم انقلاب في مراتب الإيمان، يقول الشيخ أحمد زروق: « التوبة: إدبار من الخلق، وإقبال على الحق»[3].

في كتاب «أطلق العنان لمقدراتك» صاغ «دونالد أو كليفتون» بعد أبحاث ودراسات تجاوزت أربعين عامًا، فلسفة جديدة وقوية دفعت آلاف الأعمال والمديرين والأفراد إلى نجاحات منقطعة النظير.. إنّ نظرية «كليفتون» تدور

1- الشيخ عبد العزيز الديريني ـ طهارة القلوب ـ ص 111 .
2- الشيخ سهل التستري ـ تفسير القرآن العظيم ـ ص 103 .
3 - علي فهمي خشيم ـ أحمد زروق والزروقية ـ ص 182 .

حول «نقاط القوة والضعف» ونصّها: «ركّز على نقاط القوة وتدبّر نقاط الضعف»[1].

إنّ هذه النظرية تعدّ انقلابًا على المفهوم الشائع أو العام الذي يركّز على نقاط الضعف لحلحلتها، فمثلا يمضي مديرو الأعمال معظم وقتهم مع أضعف الأشخاص أداءً لديهم وهم يتتبعون أخطاءهم، ويركز الأهل والمعلمون على علامات التلاميذ الأدنى بدلًا من تركيزهم على الأعلى، المصرفيون ومقيمو التسليف يعتمدون في إعطاء حكمهم بشأن منح السلفة على التاريخ السلبي للرصيد. يتركز معظم العمل الاجتماعي تقريبًا على المشاكل بدلًا من مساعدة الناس ليصبحوا مُكْتفين ذاتيًا. هذا لأنّ السياسة الاجتماعية العامة تقول: إنّك إذا أصلحت نقطة ضعف في أحد الأفراد، فإنّ هذا الفرد يصبح أقوى، وإذا أصلحت نقطة ضعف في تنظيم ما، فإن هذا التنظيم سيصبح أفضل، وفي النهاية يفترض أنّه عندما تتم إزالة أو إصلاح كلّ نقاط الضعف، حينئذ سيكون كلّ شيء مثاليًّا.

هذا المفهوم يراه «كليفتون» خاطئًا تمامًا، ويضرب لذلك مثلًا يوضّح فيه سبب الخطأ في اعتناق هذا المفهوم، فيقول: في كتابة مقال

مثلا، إذا صحّحت كلّ الأخطاء الإملائية والنحوية، فليس بالضرورة أنك تكون قد أوجدت مقالة ممتازة. اشتهر «همنغواي» و«فولكنر» وكثيرون آخرون من الكتاب المشهورين بضعف الإملاء والنحو عندهم. إنّ الكتابة العظيمة تتعلّق بنقل نقطة القوة لشخص لديه أفكار عظيمة إلى الورق،

1- دونالد أو كليفتون ـ أطلق العنان لمقدراتك ـ ص 27 .

وحالما توضع تلك الأفكار على الورق يمكن لأي محرر أن يقوم بتدبير الأخطاء الإملائية والنحوية [1].

إنّه انقلاب في طريقة التركيز على معالجة الأمور من النقيض إلى النقيض. وقد جسّد المنتخب الصيني لكرة الطاولة هذه النظرية بشكل متميّز، إذ استطاع أنْ يحافظ على الميدالية الذهبية لفترة طويلة، وفي أولمبياد 1984م، وقد سُئل المدرب الصيني عن سرّ الفوز المتواصل فقال: إنّنا نتدرّب ثماني ساعات في اليوم لتقوية نقاط القوة، وقال موضحًا: هاكم فلسفتنا: إذا طوّرت نقطة القوّة لديك إلى ما يقرب الحدّ الأقصى، فإنّ القوّة تصبح إلى حد كبير بحيث تطغى فيه على نقاط الضعف، وكما ترون فإنّ لاعبنا يلعب بمقدّمة يده، ومع أنّه ضعيف باللعب بمؤخرة يده ومنافسه يعلم بنقطة ضعفه هذه لكنّ مضاعفة نقطة قوته وهي اللعب بمقدمة اليد أوصله إلى درجة لا يمكن قهره [2].

وأنا أكتب هذه السطور أتساءل مع نفسي، ترى هل سيتغير شيء في عالمنا العربي والإسلامي لو أنّ الخطاب الثقافي والاجتماعي والديني وحتى السياسي انتقل من التركيز على نقاط الضعف في الأمة من التفرقة والتشتت والتخلف والوقوع ضحية حلقات مسلسل غربي مدبلج اسمه «المؤامرة»، إلى نقاط القوة ووجّه كلّ الطاقات والإمكانات مهما كانت متواضعة لتقويتها؟

1- دونالد أو كليفتون ـ أطلق العنان لمقدراتك ـ ص 15-16.

2 - المصدر نفسه ـ ص28 .

إنّ الأمّة فعلًا بحاجة إلى انقلاب كبير على مفاهيمها لا يقل شأنًا عن الانفجار الكبير الذي ولّد الكون.

أسمح لنفسي أن أختم هذه الفقرة بالقول : (الانقلاب إكسير كلّ شيء).

الرقص قرب شجرة آدم

«إن الدراسة المتعددة الجوانب للظواهر تؤدي إلى اكتشاف قوانين جديدة» [1].

عالم الكيمياء الروسي ايفان

نظرية التطور لدارون، هذه النظرية كنت أسمع أنّها مثيرة للجدل، وأنّها نظرية مرفوضة دينيًا وأخلاقيًا بل وإنسانيًا.. فما هي؟ولماذا يكفّرها البعض؟وهل يجوز تسمية أولئك التكفيريين بالصندوقيّين بامتياز؟

فلنذكر شرحًا مبسّطًا قرأته عنها في أحد مواقع الانترنت: مجمل النظرية تقوم على أنّ المخلوقات جميعها كانت بدايتها من خلية واحدة، وأنّ هذه الخلية تكوّنت من الحساء العضوي نتيجة لتجمّع مجموعة من جزيئات البروتين وبينها بقية العناصر الأخرى حيث أدّت عوامل بيئيّة ومناخية (حرارة، أمطار، رعد، صواعق) إلى تجميع هذه الجزيئات في خليّة واحدة هي الأميبا، وأنّ جُزيء البروتين تكوّن نتيجة لتجمّع مجموعة من الأحماض الأمينية وترابطها بروابط أمينية وكبريتية وهيدروجينية مختلفة كذلك نتيجة

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 32 .

لعوامل بيئية ومناخية مختلفة، وأن الأحماض الأمينية تكونت بدورها نتيجة لاتحاد عناصر الكربون والنتروجين والهيدروجين والأكسجين، وأنّ الخليّة الأولى أخذت تنقسم وتتطوّر إلى مخلوقات ذات خليتين ثم إلى متعددة الخلايا وهكذا حتى ظهرت الحشرات والحيوانات والطيور والزواحف والثدييات ومن ضمنها الإنسان، كما أنّ جزءًا آخر من الخلية انقسم وتطور إلى أنواع من الخمائر، والطحالب، والأعشاب، والنباتات الزهرية واللازهرية، وأنّ الحيوانات في قمة تطورها أدّت إلى ظهور الثدييات التي مثّلت القرود قمة سلسلة الحيوانات غير الناطقة، وأنّ الإنسان هو نوع من الثدييات تطوّر ونشأ من القرود.

و نتيجة لما يتميّز به الإنسان المعاصر من عقل وتفكير، ومنطق وترجيح فإنّه كانت هناك مرحلة بين القرود والإنسان سُمّيت بالحلقة المفقودة.

وكذلك فإنّ التطور في الإنسان أخذ منحىً آخر وهو في العقل والذكاء والمنطق ولا يعتمد كثيرًا على الشكل والأعضاء .

وأنّ التطوّر البشري مستمر منذ وجود الإنسان الأول، وأنّ هذا التطور صاحبه هجرات للأنواع البشرية المتطورة عن أسلافها إلى مناطق أخرى جديدة لتتكيّف مع الأوضاع الجديدة .

وأن السلسلة البشرية تظهر تطورًا عقليًّا وذهنيًّا واستيعابيًّا يزداد كلما ارتقى في سلم التطور البشري.

وأنه نتيجة لهذا التسلسل في التطور البشري فإنّ الأجناس في أسفل السلسلة أقرب للطباع الحيوانية من حيث الاعتماد على الوسائل البدائية

والقوة البدنية والجسدية من الأجناس التي في أعلى السلسلة والتي تتميز بالاعتماد على استخدام العقل والمنطق، وبالتالي فهي أكثر ذكاءً وإبداعًا وتخطيطًا وتنظيمًا ومدنيّة من الأجناس السفلي في السلسلة.

وأنّ معظم البشر الذين يقطنون العالم والذين هم من أصل القرود يتسلسلون بحسب قربهم لأصلهم الحيواني حيث إنهم يتدرّجون في ست عشرة مرتبة، يأتي الزنوج، ثم الهنود، ثم الماويون ثم العرب في أسفل السلسلة، والآريون في المرتبة العاشرة، بينما يمثل الأوربيون (البيض) أعلى المراتب (الخامسة عشرة والسادسة عشرة).

وأنّه بعد المرتبة السادسة عشرة هناك مرحلة أكبر وأعلى قفزت في التطور البشري بدرجة عالية وتميزت بتفوقها وإبداعاتها في كلّ ما يتعلق بشؤون البشر من تخطيط وترتيب وتنظيم ومدنية وتحضر وتصنيع وتجارة واقتصاد وسياسة وتسليح، وكذلك الشؤون الثقافية والعسكرية والفنية والاجتماعية، وتعرف هذه المجموعة (بالجنس الخارق).

وأنّ الأجناس في أعلى السلسلة البشرية لها القدرة والتمكن من السيطرة والتوجيه والتسخير للأجناس التي هي دونها، وكلّما كان الفارق في السلسلة كبيرًا كانت عملية السيطرة والتوجيه أسهل، فمثلًا يستطيع الأوروبيون استعباد الزنوج والسيطرة عليهم أكثر من سيطرتهم على الأوروبيين، وهكذا فبعض الشعوب والأجناس عندها قابلية أن تكون مستعبدة ومسيطرٌ عليها بينما بعضها لديها القدرة على الاستعباد والسيطرة.

ومما تذكر بعض المصادر العلمية أنّه وبفضل كلّ من العلماء (مندل

وواطسون و كريك) أمكن دعم النظرية التي قامت على الملاحظات العامة، وذلك من خلال الحمض النووي الذي أثبت بحسب قولهم إنّه لم يمكّن من التعرف على حدوث التطور فحسب، وإنما أيضًا على كيفية تشكيله وتغييره لمظهره. فعندما يجري تنشيط جينة وراثية ينتج عن ذلك بروتين معين في الخلية، على سبيل المثال إذا تم تنشيط الجينة الخاصة ببروتين (بي أم بي 4) يصبح منقار الطائر قصيرًا وعريضًا، وعلى العكس، إذا تم تنشيط جينة كالمادولين يصبح المنقار طويلًا ورفيعًا.

علاوة على هذا فإنّ الباحثين يعلمون اليوم أنّ الارتقاء لا ينشأ من خلال تغير الجينات، وإنما من خلال ظهروها واختفائها، وهذا التصور عن التغير الجيني يبيّن أيضًا أنه لا توجد جينات بشرية خاصة. فنحن لدينا قرابة 21 ألف جينة، بنفس العدد الموجود لدى الفأر، لهذا ليس هناك حاجة إلى جينات جديدة لتنشأ أنواع جديدة، إنما يجب فقط أن تمزج الجينات بشكل مختلف في كلّ مرة.

من هنا ظهرت نظرية (السلف المشترك العام) وهذه النظرية تفترض أنّ جميع الأحياء الموجودة على سطح الأرض تنحدر من سلف مشترك وحيد عام أو لنقل حوض جيني أصلي وحيد.

في أيام داروين كانت الإثباتات على التشارك بالسمات يستند فقط إلى الملاحظات المرئية للتشابهات الشكلية، مثل حقيقة أنّ جميع الطيور حتى التي لا تطير تملك أجنحة، أمّا اليوم فهناك إثباتات أقوى تقوم على أساس علم الوراثة تؤكد وجود السلف المشترك. مثلا، كلّ خلية حية تستخدم نفس الحمض النووي كمادة وراثية (DNA وRNA) وتستخدم نفس

الأحماض الأمينية كوحدات بناء للبروتينات.

إضافة إلى ذلك فإنّ جميع الأحياء تستخدم نفس الشفرة الوراثية (باختلافات ضئيلة ونادرة) لترجمة الأحماض النووية إلى تسلسل الأحماض الأمينية التي تشكل البروتينات في النهاية. هذه التماثل العام لهذه السمات المشتركة في خلايا جميع الكائنات الحية يطرح بقوة فرضية السَلَف الواحد للأحياء بحسب القائلين بها.

أنا حين أقرأ مثل هذه النصوص ذات المراجع العلمية ينتابني شعور بقبولها لأنّها تبدوا معقولة ومنطقية إلى حدّ ما، ولكن ما يجعلني أتردد في قبولها بشكل قطعي هو اللغط الذي يثار هنا أو هناك بين الحين والآخر حولها، وما يّعْلق في ذهني ولا أشك أنه يَعْلق في ذهن الكثير من الناس، أن سبب رفض هذه النظرية هو قولها إنّ الإنسان تطوّر عن القرد الشمبانزي.

فإذا توقفت لبرهة مع سبب إنكارها لكونها تقول إنّ القرد هو أصل الإنسان، وبالطبع فهذا يتعارض مع الفهم الديني القائم على أساس خلق الإنسان من طين وأنه مُكرّم لقوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم﴾[1] فإنّ ذلك يثير استغرابي بشدة، وذلك لأن أصل النظرية لا يقول نهائيا بأن القرد تطوّر فصار إنسانًا، بل تقول إن هناك حلقة مفقودة بين القرد وهو أرقى كائن في عالم الحيوانات الثدية وبين الإنسان، ولا يعلم لا دارون ولا سواه ما الذي حصل في هذه الحلقة المفقودة.

وإذا كان الأمر كذلك، أفلا يعد إنكارها تحاملا غير مبرر؟أو على الأقل

1- الإسراء : 17 .

تحاملا قصير النظر؟

صدق أينشتاين إذ قال: «أعنف معارضة تواجه الأفكار العظيمة هي تلك التي تصدر عن أصحاب العقول الضحلة والمتوسطة»[1].

بالنسبة لي فأنا أميل إلى الاكتشافات العلمية التي تناولتها وكالات الأنباء مؤخّرًا عن دراسة علماء كاليفورنيا بخصوص نظرية التطور، ففيها شيء مميز يجعلها تتساوق مع ما سبق أن أشرنا إليه من تقارب في آراء الفلاسفة والصوفية والعلماء.. فمثلا وكالة (الأشوسيتد برس) قالت الآتي:

أعلن (تيم وايت) مدير مركز أبحاث تطور الإنسان بجامعة كاليفورنيا ببيركلي بالولايات المتحدة بأنه: بدلًا من القول إن الإنسان قد تطوّر من كائن شبيه بالقرد الشمبانزي، الاكتشاف الجديد يدل على أن قرود الشمبانزي والإنسان قد تطورت منذ زمن بعيد جدا من نفس الأصل. أي أنّ كلاّ من الإنسان والشمبانزي، قد تطور بمفرده بعد ذلك.

العظام المتحجرة المكتشفة منذ عام 1994م للمخلوقة الأنثى التي تسمى (آردي)، تبيّن أنها ليست جدتنا، بل هي أقرب شيء لجدتنا أمكننا الوصول إليه حتى الآن. وهذا يعني أن فروع شجرة التطور التي تؤدي إلى الإنسان الحديث والقرود، تقود إلى أصل واحد كان يعيش منذ 6 أو7 مليون سنة.

وقد بيّن (تيم وايت) أنّ (تشارلس دارون) الذي مهّدت أبحاثه العلمية في القرن التاسع عشر إلى علم التطور، كان حذرًا بخصوص أصل الإنسان وأصل القرد، فقد قال: «إننا يجب أن نكون حذرين. الطريقة الوحيدة

1- مقال : الشك المنهجي ونظرية الأفكار ـ محمد على ثابت ـ موقع كتابات على النت.

لمعرفة الأصل الذي يجمعنا نحن وقرود الشمبانزي، هي أن نواصل البحث عن هذا الأصل المشترك »[1]، وهذا الأصل الذي لم يكتشفه سماه (الحلقة المفقودة) وقد تبيّن من خلال تفحّص المخلوقة المكتشفة (آردي) أنّ هيكلها العظمي فيه قِطَعٌ عظمية لا تشبه قطع الشمبانزي ولا تشبه الإنسان.

بلغة صريحة: هل نظرية التطور والمكتشفات العلمية الحديثة تقول إن الإنسان أصله قرد؟

الإجابة كما يقول (محمد زكريا توفيق) في مقاله (قناة الجزيرة تكذب ـ العلم يثبت كلّ يوم صحة نظرية دارون): هي لا، نحن لم نأت من قرود الشمبانزى أو الغوريلا. إنما نحن والشمبانزى والغوريلا قد أتينا من أصل واحد. قرود الشمبانزى ليست آباءنا، ولكن في نفس الوقت القرابة بيننا وبين الشمبانزى مذهلة.

فعلم التشريح يقول: لا فرق.

ومراحل تكوين الجنين تقول: الفرق ضئيل جدًّا.

والجينات تقول: تقريبًا لا فرق.

ودرجة مقاومتنا للأمراض واحدة.

وأسلوبنا في تعدّد الزوجات والسلوك الاجتماعي واحد.

وشراهتنا في حب السلطة وتكوين الثروة وتزوير الانتخابات واحدة!.

هذا كلام معروف منذ سنين أن قرود الشمبانزي ليست هي جدودنا.

1- مقال : كذبت قناة الجزيرة العلم يثبت كل يوم صحة نظرية دارون ـ على النت .

وكان العلماء يعتقدون بأنّ (آردي) قد تكون هي الجدّ المشترك الذي نبحث عنه أو (الحلقة المفقودة) لكن أثبتت الدراسة المتأنية التي قام بها فريق علماء جامعة كاليفورنيا وجامعة كينت، أنّ (آردي) ليست هي جدّنا المشترك، نحن وقرود الشمبانزي، لكن هي قريبة جدّا من الجدّ المشترك[1] .

إنّ هذه النتيجة يمكن أنْ تكون مقدّمة لحلحلة عدد من الإشكالات التي دوّخت الفكر الإنساني لقرون طويلة من عمر البشرية، فهي:

أولا: تعطي انطباعًا يؤيّد المقاربات الصوفية والفلسفية والعلمية القائلة إنّ كلّ ما نراه من كثرة خلقية، ظهر من شيء ما، صفته الوحدة.

ثانيا: تؤيد النظريات العلمية ولا تتناقض مع المعتقدات الدينية.

على أنني واستكمالا للموضوع من كلّ جوانبه سأذكر هنا نظرية أثارت فيّ الإعجاب والاستغراب في ذات الوقت، فقد تنبأ واضع هذه النظرية وهو الدكتور (محمد شحرور) بأنه قد وصل فعلا لما يسمى بـ (الحلقة المفقودة).

نظرية المفكر السوري (محمد شحرور) تأتي ضمن سلسلة نظريات جريئة ومثيرة للجدل، لكونها في نظر الكثيرين قد اخترقت جميع الخطوط الحمراء في الفكر الإسلامي، حيث ضمّنها في مؤلفه (الكتاب والقرآن ـ قراءة معاصرة) ذلك الكتاب الذي نبّهني إلى قراءته أحد الصوفية، قال إنّ شيخه أعطاه إياه ونصحه بالتمعّن في قراءته لأنه سيجد فيه ما لا يجده في سواه من مؤلفات الفكر الإسلامي وقتئذ.

وهنا، لا أريد أن أطيل في حديثي عمّا تضمنه هذا الكتاب من رؤى

1- موقع هلوسات على النت.

وآراء، أنصح قرّائي بقراءته قراءة متأنّية لمن يريد منهم أن يطّلع على نموذج من التفكير غير التقليدي في مجال الفكر الإسلامي المعاصر، ولهذا فسأقتصر على ذكر نظريته في (أنسنة البشر) التي يرى بأنها تسد فراغ الحلقة المفقودة وتقف حلقة وصل بين العلم والدين والفلسفة على حدّ سواء. يرى الدكتور شحرور:

أولا: قبل آدم كان ثمةَ صنفٌ من المملكة الحيوانية يدعى البشر. وهو يعني هنا (إنسان الكهوف) أو (الإنسان القديم) أو (النياندرتال).

ثانيا: ثم اصطفى الله تعالى (آدم وزوجه) من ذلك الصنف البشري (إن الله اصطفى آدم ...)[1].

ثالثا: ثم نفخ الله الروح في البشر فتحول إلى إنسان وتطوّر وتقدّم، ولم ينفخ الروح في القرود وباقي الحيوانات فبقيت كما هي.

أي لدينا كما يقول شحرور ـ المعادلة : بشر + روح = إنسان.

ويقول: لإعطاء فكرة للقارئ عن الروح التي حوّلت البشر إلى

إنسان، أي التي نقلت الإنسان نقلة نوعية من المملكة الحيوانية إلى كائن عاقل واع، نقول: لإعطاء هذه الفكرة لا بدّ من الإشارة إلى أننا نرى أن نفخة الروح هي (الحلقة المفقودة) عند العلماء الذين بحثوا في نشأة الإنسان. كما نرى أن آدم هو أبو الجنس الإنساني لا الجنس البشري، بمعنى أنّ التاريخ الإنساني الواعي يبدأ بآدم.

ويرى أنه وبنفخة الروح أصبح الإنسان (خليفة لله في الأرض) ومن

1- آل عمران: 33.

جرّاء نفخة الروح هذه أصبح للإنسان تاريخ واعٍ، وأصبح يلبس لباسًا ويسكن بيوتًا، وصار عنده حرام وحلال ومسموح وممنوع، وبنفخة الروح طيّر الطائرات وأطلق الصواريخ وصنع السيارات والغواصات وأشاد المصانع، كما أقام دولًا، ووضع تشريعات وقوانين وأنشأ مؤسسات علمية واجتماعية. كلّ هذا حصل من هذه النفخة التي قال عنها الخالق عزّ وجل: (ونفخت فيه من روحي) فنفخة الروح هي النقلة النوعية التي أدّت إلى انتقال البشر إلى إنسان (الأنسنة).

ويبدو لي أنّ هذه الرؤية تشابه نصا لـ (ستيفن هوكينغ) اتّخذه موقع (هلوسات) شعارًا له جاء فيه: «عاش البشر كالحيوانات ملايين السنين، إلى أن حدث شي أطلق العنان لمخيلتهم، لقد تعلموا الكلام، أهم منجزات الإنسانية تحققت بتعلمه الكلام، وأكبر خيباته حدثت حين توقف عن ذلك».

ولعلّي لا أثقل على قارئي الكريم إذا تطرقت لذكر بعض مفاهيمه التفسيرية لنصوص القرآن الكريم ذات الصلة بهذا الشأن علّي استنبط نظريّته من خلالها، إذ يرى بأن:

أولا: أنّ الجنس البشري (النياندرتال) كان يعيش كالحيوانات تمامًا بلا وعي، تحكمه وتتحكم فيه الغرائز والطباع التي تتحكم في مملكة الحيوانات، ولكنه تميز عن تلك المملكة كلها بأنه وصل إلى التطور العضوي والنضج المذهل لنفخة الروح، وهذا النضج تمثل في:

1. انتصاب الإنسان على قدميه وتحرير اليدين وذلك في قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ. الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ. فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾[1] ونرى هنا معنى عَدَلك هو معنى فيزيائي وليس اجتماعيًا لأنه جاء في آية واحدة مع الخلق والتسوية. هذه الظاهرة في الاستواء على القدمين أعطت للإنسان بعدًا إضافيًا وهو تحرير اليدين من أجل ظاهرة العمل الواعي، فإذا نظرنا إلى اليدين في الإنسان رأيناهما من أروع آلات العمل، تمتلكان قدرة هائلة على المناورة في الحركات.

2. نضوج جهاز صوتي خاص به، وهذا الجهاز قادر على إصدار نغمات مختلفة بعكس بقية المخلوقات التي تصدر نغمة صوتية واحدة. هذا الجهاز الصوتي عُبِّر عنه في سورة الرحمن:﴿الرَّحْمَنُ. عَلَّمَ الْقُرْآنَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾[2] فهذا يعني أنه تعلم اللغة بواسطة قوانين ماديّة موضوعية وليس وحيًا أو إلهامًا. وأول هذه القوانين هو وجود الجهاز الصوتي، لاحظ أنه قال (الرحمن) ولم يقل (الله).

ثانيا: عندما أصبح البشر جاهزًا من الناحية الفيزيولوجية لعملية نفخة الروح (الأنسنة)، وذلك بانتصابه على قدميه وتحرير اليدين وبوجود جهاز صوتي قادر على إصدار النغمات المختلفة. وللدلالة على أنه أصبح جاهزًا قال: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾[3].

1- الانفطار : 6-8 .

2- الرحمن : 1-4 .

3- البقرة : 30 .

قال: (إني جاعل) ولم يقل: (إني خالق) والفرق بينهما، أن الجَعْل هو تحويل شيء إلى شيء آخر، وأمّا الخلق فإيجاد من عدم، فمفهوم الجعل يتطابق مع نظرية (أنسنة البشر)، أي جعل البشر إنسانا من خلال نفخ الروح.

قال: (يفسد فيها) والفساد هو الخراب، فعندما يصبح الطعام غير صالح للأكل نقول: فسد الطعام كقوله تعالى:﴿إِنَّمَا جَزَاءُ الَّذِينَ يُحَارِبُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَسَادًا أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلَافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ ذَلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي الدُّنْيَا وَلَهُمْ فِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾[1] وهنا (يسعون في الأرض فسادًا) تعني قطع الشجر وتخريب الطرق والجسور وهدم البيوت والمنشآت.

أي أنّ معنى قول الملائكة: (يفسد فيها) يعني أتجعل فيها من يخرّب ويدمّر خليفة لك في الأرض؟وذلك بالنظر إلى ما كانوا يرونه من أفعال البشر (النياندرتال).

وعلى هذا فإنّ شحرور يستبعد الاعتقاد القائم على أساس أن الله تعالى خلق آدم ووضعه في الجنة ثم خلق بعده حواء ثم طردا من الجنة هما وإبليس ونزلا إلى الأرض، وذلك للأسباب التالية:

إن وصف الجنة التي وصفها لآدم لا يشبه وصف جنة المتقين، لأن من صفات جنة المتقين الخلود واختفاء ظاهرة الموت. فكيف يمكن إغراء إنسان بشيء لا يعرفه وغير موجود؟وقد تم إغراء آدم بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَا يَبْلَى﴾[2] .

1- المائدة : 33 .

2- طه : 120 .

فلولا أنّ آدم يعرف الموت وأنّ الأشياء تبلى لما تغرر بذلك القول، وهذه الآية تشير أيضًا إلى أنّ غريزة البقاء هي أقوى غريزة لدى المخلوقات كلها. ثم تأتي بعدئذ شهوة التملّك وبقاء الممتلكات بقوله (وملكٍ لا يبلى) .

ثم إنّ وصف جنة آدم بعيدًا جدًا عن وصف جنة الخلد وذلك في قوله: ﴿إِنَّ لَكَ ألا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى﴾[1].

هنا نلاحظ أنّه يصف جنة أرضية تشبه الغابة التي فيها ثمار طبيعية بحيث يأكل بدون أن يعمل و(تعرى) هنا من العراء أي الخروج من الغابة إلى الصحراء كقوله: ﴿فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ﴾[2] .

هذه خلاصة نظرية الدكتور محمد شحرور التي يرى فيها أنه توصل إلى الحلقة المفقودة، وأنا شخصيا لا أجد عندي ما يتعارض معها بشكل قاطع.

إنّ ما يهمني هنا بالفعل هو ذلك النمط من العقول التي لا تزال تحاول التملّص من القيود التقليدية لتنطلق في الفضاء الحر للبحث العلمي والفكري، وبالتأكيد فلا يشترط أن يكون كلّ ما يتوصل إليه هو نهاية الطريق والحق الذي ليس بعده إلا الباطل، بل بالعكس، إن هذا الفضاء يفسح المجال لكل من يجد في نفسه الكفاءة والمقدرة على البحث والتفكير والعطاء..

إننا بحاجة إلى الانتقال من نظرة (صح ـ خطأ) إلى (صح ـ أصح) فهذه النظرة الجديدة من شأنها أن تفسح المجال لمفهوم الإثراء المعرفي، وكلما

1- طه : 118 .

2- الصافات : 145 .

كثرت وتكاثرت الرؤى، فإنّ مستويات جديدة حتما ستظهر.. وهذا ما يؤكده الكثير من العلماء المتنوّرين، يقول العالم الروسي في حقل الكيمياء العضوية (ايفان): «إن الدراسة المتعددة الجوانب للظواهر تؤدي إلى اكتشاف قوانين جديدة»[1].

1- د.أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ ص 32 .

تثوير السر الأعظم

«إنّ هذا الكون نَزَع وينزع باستمرار إلى الانتظام ويتجه بمكوناته (بنية ووظيفة) من الأبسط إلى الأعقد ومن الأقل كفاية ومردودا إلى الأشد أداء وفعالية ...» [1]

هاني رزق

صدمة الحروف المقطّعة

في القرآن الكريم حروف مقطّعة تبدأ بها بعض السور القرآنية:

﴿ألم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ﴾[2].

﴿ألر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْحَكِيمِ﴾[3].

﴿كهيعص. ذِكْرُ رَحْمَتِ رَبِّكَ عَبْدَهُ زَكَرِيَّا﴾[4].

﴿حم. عسق. كَذَلِكَ يُوحِي إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾[5] .. وغيرها كـ حم، المص، ص، ن، المر، طسم.

1- هاني رزق ـ موجز تاريخ الكون ـ ص82-83.

2- البقرة : 1-2

3- يونس : 1

4- مريم : 1-2

5- الشورى : 1-3

هذه الحروف المسماة بفواتح السور مما اختلف فيها العلماء على قولين رئيسين:

أوّلهما: أنّ هذا علم مستور وسر محجوب استأثر الله تبارك وتعالى به. قال أبو بكر الصديق: لله في كلّ كتاب سرّ وسرّه في القرآن أوائل السور، وقال عليّ: إن لكل كتاب صفوة وصفوة هذا الكتاب حروف التهجي[1]. وهذا الرأي هو ذاته الذي اشتهر به الإمام جلال الدين السيوطي الذي اكتفى في تفسيره بأن يورد عبارة : (الله أعلم بمراده بذلك) كلّما وصل لإحدى فواتح السور[2]. وقيل: الحروف المقطّعة من المكتوم الذي لا يفسر، وقال أبو حاتم: لم نجد الحروف في القرآن إلا في أوائل السور، ولا ندري ما أراد الله عزّ وجل. وقيل أيضا: هي سرّ الله في القرآن، ولله في كلّ كتاب من كتبه سرّ، فهي من المتشابه الذي انفرد الله بعلمه، ولا نحبّ أن نتكلم فيها، ولكن نؤمن بها[3] .

وثانيهما: الرأي الذي نقلة الإمام فخر الدين الرازي عن المتكلمين الذين أنكروا هذا القول، وقالوا لا يجوز أن يرد في كتاب الله تعالى ما لا يكون مفهومًا للخلق، واحتجوا عليه بالعديد من الآيات والأخبار والمعقول، كقولهم: قال تعالى: ﴿هذا بلاغ لّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُواْ بِهِ﴾ فكيف يكون بلاغًا، وكيف يقع الإنذار به مع أنه غير معلوم؟وقال في آخر الآية﴿وَلِيَذَّكَّرَ أُوْلُواْ

1- الإمام الرازي ـ تفسير مفاتيح الغيب ـ ج1 ص 266 .
2- تفسير الجلالين ـ ج 1 ص 7 .
3- الإمام الشوكاني ـ تفسير فتح القدير ـ ج 1 ص 16.

الألباب﴾ وإنما يكون كذلك لو كان معلومًا[1].

وقال جمع من العلماء كثير: بل نحبّ أن نتكلم فيها، ونلتمس الفوائد التي تحتها، والمعاني التي تخرج عليها[2].

وقد اختلفوا في المراد بها إلى أقوال عديدة، ومنها:

قيل من أسماء الله، من أسماء القرآن، اسم للسور، اسم الله الأعظم.

وقيل: حروف يشتمل كلّ حرف منها على معان شتى مختلفة[3].

وقيل: وليس منها حرف إلا وهو في آلائه وبَلائه، وليس منها حرف إلا وهو في مدّةِ قوم وآجالهم.

وقيل معناها: أنا الله أعلم.

وأما الشيخ ابن عجيبة الصوفي فقال: إنّ معرفة أسرار هذه الحروف لا يقف عليها إلا الصفوة من أكابر الأولياء، وكل واحد يلمع له على قدر صفاء شربه.

وقد عد هذه الحروف من الرموز التي تحار فيه العقول فقال: حارت العقول في رموز الحكماء، فكيف بالأنبياء؟فكيف بالمرسلين؟فكيف بسيد المرسلين؟ فكيف يطمع أحد في إدراك حقائق رموز رب العالمين؟[4].

حسنًا، أوَ ليس غريبًا أن تنزل حروف غير معلومة المقاصد في زمن كانت

1- الإمام الرازي ـ تفسير مفاتيح الغيب ـ ج1 ص 268 .

2- الإمام الشوكاني ـ تفسير فتح القدير ـ ج1 ص 16 .

3- الإمام الطبري ـ تفسير جامع البيان في التأويل ـ ج1 ص 208 .

4- ابن عجيبة ـ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ـ ج 1 ص 14.

فيه البلاغة والبيان عنوان العصر وشعاره؟

أنا لا أستبعد أن يكون من مقاصد هذه الحروف هو أن يصدم العقل بما يشبه الأحجية العصيّة على الإدراك على الرغم من بساطتها، والغاية من هذه الصدمة هو تثوير باطن الإنسان للاستلهام من مصدر التنزيل بشكل مباشر، دون الوقوف عند حدود النظر العقلي المقيد بالمعاني والألفاظ التقليدية المعروفة.

نعم (الله أعلم بمراده بذلك) ولكن لماذا أنزلها لنا لو لم يرد منا أن نعرف معناها وأن نتعبده بتلاوتها وبالأخذ بمضامينها؟

أنا اتفق مع من يقول إنّ الله تعالى أعلم بمراده بها، ولكن لا أتفق مع التوقف عن البحث في معانيها ومقاصدها ومراميها، بل أزعم ضرورة الاتجاه إلى مُنَزِّلها ليُلْهِم كلّ مؤمن بما يناسبه من تلك المقاصد والمعاني أو المرادات بها.

إنها فعلا تقوم بواجب تثوير الصندوق في كلّ زمان على أكمل وجه.

النظام واللانظام في النظم القرآني

هل سألت نفسك يوما.. لِمَ رُتب القرآن الكريم بهذا الشكل؟

لا هو ترتيب موضوعي محدد ولا هو ترتيب تاريخي منسق للأحداث مسلسل لها، ولا هو ترتيب علمي مقسّم إلى أبواب وفصول، ولا هو ترتيب حسب تسلسل نزول آيات القرآن الكريم، ولا هو ترتيب حسب حروف المعجم، وعلى الجملة لا يشبه أي ترتيب خبره الناس قديما أو حديثا..

هل رُتِّب القرآن بشكل عشوائي أي فوضوي؟

استغفر الله وألف استغفر الله، أنا كمؤمن لا أتجرأ على أن أفكر بذلك مجرد تفكير، لأنه يمسّ معتقدي المقدس الذي أدين به لربي، ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾[1].

إذن لماذا يظهر للعقل المنظّم أنّ الترتيب غير منظّم؟

هنا، تأتي الإجابة الجاهزة في العقل المسلم حين تعييه سبل الإدراك المنطقية، إذ يسارع العالم والجاهل للقول: إن في ذلك حكمة ربانيه لا يعلمها إلا هو، ولسنا مكلفين بالبحث فيها أو التدقيق في مضمونها، فهي من الأسرار التعبدية التي تقع خارج إطار النظر العقلي، بل هي ضمن مناط التكليف الشرعي. ومثلها كمثل عدد الركعات في كلّ فرض من فرائض الصلاة، مهما اجتهد العالم فلن يجد الجواب الشافي لها.

وأنا لن أخوض في بحر ليس له ساحل، ولكن أريد أن أقف على تلميح دقيق هنا، وهو:

إذا كان البعض يرى ترتيب القرآن فيه شيء من الغرابة اللامنطيقة، وأن هذا الترتيب مقدّس، أي ينطوي على حِكَم ومنافعَ ربّانية جمّة، فإنّ ذلك لا يختلف في شكله العام عما توصل له فيزيائيو الذرّة من أن نتيجة غريبة تفيد أن ما نشهده من بنية نظامية للكون قد انبثق من فوضى عارمة تسمى (الانتروبية والشواش) وأنّ السرّ في ذلك يرجع إلى (التطور الموجّه) كما يرى بعضهم، ومعنى التطور الموجّه، أنّ هناك قوة عليا توجّه هذه الحركة

1- طه : 52 .

الجامعة للفوضى والنظام في قالب كوني واحد، على أنّ الأصل الكلّي هو (الانتروبية والشواش) والفرع النسبي هو (النظام والانتظام) وإلا لما كان هناك تفسير آخر لما حصل ويحصل.

بتعبير آخر: إن الانتروبية والشواش يتقاسمان فوضى جملة ما، إلا أن الانتروبية تمثل سوء علاقات جزيئات الجملة وعدم انتظام مواضع هذه الجزيئات، ويمثل الشواش سوء توزيع الطاقة على مكونات تلك الجملة، فالانتروبية ترتبط بالحركية العشوائية لمكونات جملة ما، في حين أنّ الشواش يرتبط بعشوائية توزع الطاقة على مكونات هذه الجملة[1].

بالمقابلة مع نظم القرآن الكريم، نجد أنّ مفهوم الانتروبية ينطبق على توزيع الآيات للحدث الواحد بشكل يظهر عشوائيًا في المصحف الشريف ـ وأؤكد كلمة يظهر ـ وأمّا مفهوم الشواش فيتجلّى فيما يظهر من عدم الترابط بين معاني آيات القرآن الكريم بالشكل السردي المألوف، فعلى سبيل المثال قوله

تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى . وَلَقَدْ أَرَيْنَاهُ آيَاتِنَا كُلَّهَا فَكَذَّبَ وَأَبَى . قَالَ أَجِئْتَنَا لِتُخْرِجَنَا مِنْ أَرْضِنَا بِسِحْرِكَ يَا مُوسَى . فَلَنَأْتِيَنَّكَ بِسِحْرٍ مِثْلِهِ فَاجْعَلْ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ مَوْعِدًا لَا نُخْلِفُهُ نَحْنُ وَلَا أَنْتَ مَكَانًا سُوًى﴾[2].

الآية الأولى تتحدث عن الخلق والحياة والموت والبعث والنشور، والآية التي تليها تتحدث عن المعجزات والآيات الباهرات، بينما تناولت الآيات

1- هاني رزق ـ موجز تاريخ الكون ـ ص 81 .

2- طه : 55 - 58 .

التي بعدها الحديث عن اتهام موسى عليه السلام بالسحر أثناء دعوته لفرعون وقومه والتحدي لإجراء مناظرة أو منازلة بين موسى والسحرة.. الخ.

إن الانتقال بين الآيات الكريمة ليس له مقدمات أو روابط واضحة المعالم، وإنما هي متروكة للسياق العام الذي ينتقل فيه المؤمن أو القارئ في الأجواء الرحبة للنصوص القرآنية.

خذ مثلا آخر أيضا يتعلق بقصة موسى وهو أكبر وأكثر قصة توزعت آياتها في القرآن الكريم، يقول تعالى:﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كلّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى. فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَنْ لَا يُؤْمِنُ بِهَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَتَرْدَى. وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَا مُوسَى. قَالَ هِيَ عَصَايَ أَتَوَكَّأُ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَى غَنَمِي وَلِيَ فِيهَا مَآرِبُ أُخْرَى﴾[1].

ما الرابط بين الحديث عن الساعة والتأكيد على الإيمان بها، وبين الانتقال المفاجئ للسؤال عما في يمين موسى وهي العصا؟

الأكيد من الناحية الإيمانية أنّ هناك روابط تكون جليّة أحيانًا وأحيانًا أخرى تكون خفيّة، وهذا الروابط الخفيّة تنبه له اينشتاين حين شهد التناقض الواضح بين عشوائية الجسيمات الكمومية وانتظام الأجسام الكبير.

لقد تنبّه العلماء إلى «أنّ الكون ومنذ ولادته وحتى الآن في صراع دائم مع الانتروبية، وذلك أنّ هذا الكون نزع وينزع باستمرار إلى الانتظام ويتجه بمكوناته (بنية ووظيفة) من الأبسط إلى الأعقد ومن الأقل كفاية ومردودًا

1- طه : 15 - 18.

إلى الأشد أداء وفعالية... ويمكن اعتبار أنّ الأمور كلها تتطور تطورًا مخالفا للانتروبية، وتتمرد على المبدأ الثاني للترموديناميك، فهو تطور موجّه»[1] .

ونحن لا نجد فرقًا كبيرًا بين البنية غير النظامية التي أنتجت هذا العالم بكل ما فيه من نظام واتساق ودقة، وبين الترتيب غير الموضوعي لآيات القرآن الكريم وما توحيه للمؤمن أو القارئ من عظمة وإعجاز وبيان لم ولن يوجد له مثيل في الوجود كلّه.

وهذا المفهوم لا يختلف من وجهة نظرنا عما قيل ويقال عن قوة الخيال الإنساني بكل ما يشتمل عليه من فوضى فكرية عارمة تتضمن مختلف الصور والأشكال والأفكار العقلانية واللاعقلانية، وأنه المصدر الذي انبثق من العقل المنطقي.. فخلفيّة نظام الكون الانتروبية والشواش، وخلفية الإعجاز القرآني الترتيب اللاأكاديمي، وخلفية المنطق العقلي الخيال الذي لا يستحيل عليه الانطلاق في فضاء الأفكار فيما يشاء وكيفما يشاء.

إذن، من أهداف النظم القرآني هو التثوير لتعقل ما لا يمكن تصوره في العقل.

تثوير التفكير في الإيجاد من العدم

يقول تعالى:﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَى جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾[2].

1- هاني رزق ـ موجز تاريخ الكون ـ ص82-86.
2- آل عمران : 191.

حين يخبرنا تعالى عن صنف من المؤمنين (يتفكرون في خلق السماوات والأرض) لا يجد كثيرون وقعا غرائبيا أو عجائبيا لذلك، فللوهلة الأولى يتبادر إلى الذهن بأن المراد هو النظر في القبة الزرقاء وما تتكلل به من نجوم، والأرض ما بثّ فيها تعالى من نِعَم، ولعل هذا الفهم هو أحد أوجه الفهم لآية القرآنية، بل أكاد أجزم بذلك.

إلا أنّ التوقف والتدبّر في الألفاظ يكشف للمتدبر عن معنى خفي في الآية تكاد الجبال تتصدع من خشيته..

الآية الكريمة تقول: (في خلق) والخلق هو الإيجاد من العدم، بخلاف الجعل والذي هو الإيجاد من شيء مخلوق، فعلى سبيل المثال قوله تعالى:﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِمَّا خَلَقَ ظِلَالًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْجِبَالِ أَكْنَانًا وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ كَذَلِكَ يُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْلِمُونَ﴾[1]، فالجعل هنا بعد الخلق، أي أنه تعالى بعد أن خلق الأشياء من العدم جعل فيها خاصة الظل، وهكذا بعد أن خلق الجبال من العدم جعل فيها خاصية تكوين مأوى في كهوفها وظلالها وكذلك الأمر بالنسبة للسرابيل وهي القمصان والدروع.

في آية التفكر، لم يقل تعالى مثلا ـ ولله المثل الأعلى ـ ويتفكرون فيما جعل لهم في السماء والأرض.. لينصرف المعنى إلى ما نراه من آيات الله فيهما، بل قال سبحانه: (ويتفكرون في خلق السماوات والأرض) أي في إيجادهما من العدم.

1-النحل : 81 .

في آية أخرى يوضح تعالى هذا المعنى فيقول :﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا . وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾[1].

إنّه جل جلاله يشير إلى إمكانية رؤية الكيفية التي تخلق فيها السماوات والأرض، ونحن نفهم هذه الكيفية بما فسره لنا تعالى في قصة إبراهيم حين طلب رؤية الكيفية التي يحيي الله بها الموتى حين قال: ﴿رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي الْمَوْتَى﴾[2]، فكان أن طلب منه تعالى أن يأخذ أربع طيور ويقطع رؤوسهن ويجعل جسد كلّ طير في جهة من الجهات الأربع، ثم يدعوهن

إليه، ففعل إبراهيم، وبعد أن دعاهن إليه شاهد كيف أن كلّ جسد لطير جاء يسعى حتى وصل إليه والتصق برأسه من جديد وعاد حيًّا كما كان.

هذا معنى الكيفية، لقد رأى بعينيه كيف يحيي الله الموتى، وبذات المعنى يخبرنا تعالى أنه قد أرانا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا..!

ولي أن أسئل: كيف؟ومتى كان ذلك؟

حين أحاول التذكر، فلا أتذكر أني رأيت تلك الكيفية التي خلق الله بها كلّ شيء، لأن تذكري يعني أنّي كنت موجودًا وحاضرًا في مكان ما خارج السماوات والأرض لأشهد عملية الخلق كلها.

حسنًا.. كيف يحصل ذلك وأنا لم أخلق أصلًا؟

وإذا كان تعالى يخاطب في القرآن الكريم كلّ عاقل من بني آدم إلى يوم الدين، فإنّ هذا التفكر مطلوب من الجميع، الناس كافّة.

1- النحل : 14 .

2-البقرة : 260 .

هل هذا ممكن؟

أعني هل للإنسان العادي أن يشحذ ذهنه أو تفكيره ليتأمل كيف انبثقت السماوات والأرض من العدم؟

أليست هذه النقطة بالتحديد هي الفيصل الحاد الذي كلّت فيه عقول الفلاسفة وعَجَزت، واتهمت فيه الفيزياء الحديثة بأنها تجاوزت الخطوط الحمراء وخرجت من أرض الفيزياء إلى أرض الميتافيزيقا؟

إذا كان هذا الشأن مع أناس هم عباقرة بني آدم كما يقال، فكيف يخاطب تعالى فيه المؤمنين جميعا؟هذا مع علمنا اليقيني وإيماننا المطلق بأنه لا أصدق من الله قيلا.

إنها حقا لمفارقة، ومفارقة كبيرة إنْ نظرنا إليها من هذه الزاوية، وهي تتعمق وتتسع مع كلّ آية نقرأها في القرآن تقرن عملية الخلق الإلهي بالرؤية الإنسانية، كقوله تعالى:﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إلى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾[1].

إذ وعلاوة على التقرير الإلهي بأنّ النظر ممكن لعملية الخلق من

العدم، فإنّ الأمر يزداد غرابة حين توحي الآيات بأنّ الفعل مضارع، أي مستمر لهذه العملية.. الأمر الذي يعني أنه بإمكاني أن أنظر إلى الإبل كيف تخلق وإلى السماء كيف ترفع وإلى الجبال كيف تنصب وإلى الأرض كيف تسطح.

1- الغاشية : 17 - 20 .

حسنًا.. أو ليست هذه الأمور قد تمت بالفعل قبل خلق الإنسان، أي في الماضي؟فكيف إذن يُطالب بأن يرى كيفية حصول ذلك في الحاضر؟ل يتخيل مثلا؟ربما.

لكني أقول: إن كلمات الله أعظم من ذلك بكثير..

عند الصوفية رؤية مميزة في هذا الشأن، فهم يقولون إنّه تعالى خلق الأرواح قبل خلق السماوات والأرض، في عالم مفارق يسميه البعض

(عالم الذر) وهو العالم المشار إليه في قوله تعالى:﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾[1]، وما حصل أن الأرواح شهدت في ذلك العالم كيف خلق كلّ شيء، حتى إذا ما ظهرت في الأجسام خالطتها الغفلة والنسيان.

إنها رؤية جديرة بالاهتمام، ولم لا؟فهي تعطي تفسيرًا منطقيًّا قد يرفع التناقض كله.. ولكنها لم تفسر إمكانية رؤية ذلك في الحاضر والمستقبل.

ربما يقول البعض: عالم الأرواح لا يتقيّد بقيود الزمان والمكان، ففيه الماضي والحاضر والمستقبل نافذ على بعضه البعض.. وهو قول قد يصعب على كثيرين تصوّره، إلا أنني شخصيًا أستوعبه وأتفهّمه، ولهذا أقول: نعم قد يكون ذلك هو الجواب، فخطاب الله تعالى في القرآن الكريم هو للأرواح المؤمنة، ومتى ما انكشف حجاب الغفلة والنسيان عن قلب العبد فإنّ الرؤية لكيفية الخلق تتحقق بغض النظر عن الزمان والمكان، والقرآن

1-الأعراف : 172.

الكريم يشير إلى ذلك في مواطن عدّة أشار إليها في آيات الإسراء والمعراج حيث رأى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم الماضي والحاضر والمستقبل في وقت واحد، وحين انتهى الإسراء كان مزلاج الباب لا يزال يتحرك بعد خروجه، أي أنّه لم يستغرق إلا ثوانٍ معدودة، وبرأيي الشخصي لم يفقد من زمننا الأرضي ولا جزء من الثانية.

أقول: ربما يكون هذا هو الجواب وربما يكون غيره، وما يهمني أنا هنا هو أنّ الآيات القرآنية بهذه الطريقة تحاول أن تثوّر في المؤمن التحرك نحو التفكير غير التقليدي.. التفكير غير المألوف.. وكلما أعمل الفكر وسأل ربه في قلبه واستفسر، فإنّ وحي الإلهام حاضرٌ ليلقي في روعه ما يزيده علما على علم ونورا على نور.

القرآن ليس مجرد كلمات تُتلى لأجل الحسنات، وإن كان ذلك فضل من الله علينا عظيم، بل هو نور لم يزل يثوّر في قلب المؤمنين أسراره العظيمة.

يسبح الرعد بحمده

يقول تعالى: ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾[1].

الآية تثير في التفكير أسئلة جمة، كيف يسبح الرعد بحمد الله؟

كلّنا نسمع صوت الرعد حين يدوّي في ليالي الشتاء العاصفة، فهل هذا الصوت هو تسبيح الرعد بحمد الله؟

هل هذا الدّوي الهائل والمرعب أحيانًا هو تسبيح بحمد الله؟

1- الرعد: 13.

كنت أظن أنّ التسبيح بحمد الله ألطف من ذلك بكثير.

ثم، ألم يكشف العلم الحديث عن حقيقة هذه الظاهرة الكونية؟

أوَ ليس التسبيح هو أن يقول المسبح مثلا: سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله اكبر، أو ما إلى ذلك من ألفاظ التسبيح؟فأين هذا من ذاك؟

وإذا كان للرعد تسبيح خاص به من جنس خلقته، فلماذا يخبرنا به تعالى وهو يعلم أننا لا نفقه من تسبيحه شيئا؟

هل مثل هذه الآية الكريمة تؤدي إلى إيمان الكافر أو المشكك؟أم تولّد مزيدًا من التشكيك لدى ضعيفي الإيمان فضلا عن غير المؤمنين؟

لعلّ الأنبياء والأولياء والصالحين الواصلين إلى مراتب معيّنة من الصفاء الروحي والنقاء النفسي فيهم من الشفافية ما يمكّنهم وبواسطة الحواس الباطنة التي تتفتق في قلوبهم من أن يكونوا شهودا على حقائق مثل هذه القضايا، ولكن ألا يجعل ذلك الأمر يبدو خاصًّا بالقِلّة؟في حين أنّ الخطاب القرآني للناس كافة؟

بمعنى: ألا يدل الخطاب القرآني على شمولية الجميع بفهم وتدبّر القرآن الكريم؟فكيف يُتصوّر أن يُفهم أمر لم يطّلع عليه إلا القلة؟

من جهة ثانية، يذكر تعالى في الآية الكريمة أنّ الملائكة تسبح من خيفته، فإذا كان الرعد يُسمع صوته ولا يُفقه تسبيحه عند الأكثرية، فإنّ الملائكة لا يسمع لها صوت أصلا.

في آية قرآنية أخرى، يقول تعالى:﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ

دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾[1] أي أن الله يخرج للناس دابة تكلّمهم فيفهمون كلامها.

ما هذه الدابة؟وهل هي من الحيوانات المألوفة للبشر؟أم مخلوق لم يرَ الناس مثيلا له من قبل؟وبأي لغة من لغات الأرض ستكلم الناس؟وهل ستكلم الناس باللغة العربية أم تكلم كلّ قوم بلغتهم، أم بلغة خاصة يفهمها الجميع؟

وفي القرآن الكريم آيات وآيات وآيات، تتجاوز في مضامينها خط المألوف العقلي والتفكير المعتاد لدى الناس في مختلف أصقاع العالم، كتلك التي تذكر العرش والكرسي والمغيبات.

لو تخيلت أنّني عدتُ إلى زمن نزول القرآن الكريم وسمعت هذه الآية الكريمة، لربما لم أستبعد حدوث مثل هذا الأمر، وذلك لأنّ ثقافة ذلك الزمان كانت حافلة بمثل هذه الأعاجيب.. سواء الصادق منها أم الكاذب، ولكن القرآن الكريم أُنزل ليكون المعجزة الخالدة لكل زمان ومكان، وفي عصرنا هذا بات الحديث عن مثل هذه الأمور بعيدا عن الواقع بمسافات كثيرة وكثيرة جدًّا.

إنّ التصديق بما جاء في القرآن الكريم يقوم على أساس (الإيمان بالغيب) أي أنْ يؤمن العبد بأشياء يغيب عن حواسه الظاهرة إدراكها، أو يغيب عن عقله إمكانية تصورها، فيصدّق بها على ما هي عليه كما نطق بها (المخبر الصادق) وهو النبي صلى الله عيه وسلم، وإلى ذلك كانت الإشارة في قوله

1- النمل : 82 .

تعالى: ﴿الم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ. الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ. وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ. أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[1] فقوله تعالى:﴿الذين يؤمنون بالغيب﴾ هو الركن الأساس الذي يقوم عليه كلّ ما يتعلق بالدين.

وإذا كنت أرجو من الله تعالى أن أكون أحد هؤلاء المؤمنين بالغيب، فإنّ القرآن الكريم لم يأت للمؤمنين فحسب، بل للمؤمنين وغيرهم.. وهؤلاء غير المؤمنين لن يصدقوا ما جاء فيه ما لم يعقلوا أولا، وهذا التعقل يتطلب السؤال والاستفسار عن كلّ صغيرة وكبيرة، ومنها ما أشرت إليه هنا.

ولنا بعد هذا أن نطرح السؤال الأهم هنا وهو: إذا كان تعالى قد أنزل القرآن الكريم ليكون هدىً ونورًا للعالمين، فلماذا يذكر مثل هذه الأمور العجائبية ـ إذا جاز التعبير ـ التي يستعصي على غير المؤمنين إدراكها أو تعقلها أو التصديق بها؟

أنا لا أملك الإجابة القطعية أو المفصّلة هنا.. وما أعرفه على وجه العموم هو أن كلّ ما ذكر في القرآن الكريم مما يفوق المألوف ويتجاوز المعروف، مقصده تثوير الرغبة في البحث والسؤال طلبا للمعرفة اليقينية الحقة.

بتعبير آخر: إذا كان تعالى يذكر وجود أشياء خارقة (غيبية) في الوجود، فإنّ ذلك يعني أنّ من ذكرت له هذه الأشياء قادر وبطريقة ما على التحقّق منها والتيقّن من حقيقتها. وما ذِكْر هذه الآيات الكريمة إلا عملية استثارة

1- البقرة: 1، 5.

للقوة الروحية الباطنة في الإنسان لكي يسعى في معرفتها حق العرفان، أو لا أقل من اعترافه بقصر باعه في معرفة أسرار الوجود.

إنّ القرآن الكريم دعوة للتفكّر خارج إطار المورث الفكري، أي للتفكر في اللامفكر فيه، ومن يفعل ذلك يأتيه العلم من حيث لا يعلم.

النظر من ثقب الباب

« إن الحقيقة العلمية الجديدة لا تنتصر عبر إقناع معارضيها أو جعلهم يرون الضوء (عبرها) ولكن الأمر هو أن هؤلاء عادة يموتون، ويكبر جيل جديد يكون أكثر تقبّلا لتلك الحقيقة الجديدة» .

ماكس بلانك

حين أتذكر الآن ثلاث مواقف حدثت لي في صغري، أضحك في سري منها وأستغرب من ضآلة العقل البشري.

أول تلك الأحداث كان عندما عاد جدّي من حج بيت الله الحرام، أذكر وقتئذ أنه استقبل بفرحة كبيرة لا تقل عن استقبال الفاتحين المنتصرين، أما أنا فقد كانت فرحتي الكبيرة حين علمت أنه لم ينسني وأحضر لي من هناك هدية خاصة، قال لي حين أعطانياها وهو يمازحني: هذه لك لكي تحج مثلي.

كانت الهدية عبارة عن علبة لا تتجاوز في حجمها كفّ يدي الصغيرة وفيها ثقب صغير بأحد أوجهها، وعليه غشاء شفّاف، نظرت من الثقب وإذا بي أرى مكة المكرّمة والحُجّاج حولها، لأول مرة فزعت مما رأيت.. أبعدت عيني ونظرت حولي، أين هؤلاء الناس هل هم هنا أم ماذا؟

لم استطع للوهلة الأولى أنْ أتصوّر أنّ الناس كانوا داخل العلبة، عدت

للنظر وإذا بهم موجودون بالفعل في داخلها.

أبعدت عيني مرة أخرى ورحت أتساءل: كيف دخلوا هناك؟ومن هم؟

انتبهت ورأيت جدي يراقبني من بعيد وهو يبتسم وكأنه علم بتشوش عقلي وعدم تمكّنه من استيعاب ما يرى.. إذ العقل يرتبك حين يرى أشياء لم يعهدها قبلا أو لا يعرف لها تفسيرا مباشرا.

قال لي جدي: لا تخف، انظر واضغط على الزر في أسفل العلبة.

نظرت كما طلب مني ولكن على حذر وضغطت الزر، فكان أن تحول المشهد كليا لأرى المدينة المنورة والناس يحفّون بالمسجد النبوي.

فزعت مرة أخرى لهذا التحول، وأبعدت العلبة عن عيني، وإذا بجدي يضحك عليّ، بل أخذ يقهقه من الضحك وقال لي: تعال، لماذا تخاف مما ترى؟

قلت: من هؤلاء؟وكيف دخلوا هناك؟وهل سأسقط معهم إذا مددت رأسي؟

قال لي: بنيّ هؤلاء ليسوا أناسا حقيقيين، هذه مجرد صور وضعت في الداخل، مثلها مثل الصور التي نأخذها بالكاميرا دائمًا. وقتئذ فقط استطعت أن أتقبّل ما أرى، واستوعبت كيف رُصّت تلك المشاهد في ذلك الصندوق الصغير.

وأمّا الحدث الثاني، فكان حين اشترى لنا والدي أوّل جهاز تلفاز، كان باللونين الأسود والأبيض، وكانت الترنسستورات فيه تسمى (اللمبات) وكنا نسميه (أبو اللمبات).

المهم أنني حين شاهدت المذيع، ذهلت أيّما ذهول!!

كيف دخل هذا الرجل الكبير إلى هذا الصندوق؟وأين نصفه الآخر؟إذ كانت الصورة تظهر نصف شخص أمامي؟

صحيح أنّ هذه العلبة أكبر، ومساحة المشاهدة أكبر فبدل الثقب الصغير أصبح شاشة كبيرة، إلا أنّ هذا الرجل ليس صورة، إنه يتحدث ويتحرك، وبعده أخذت المشاهد تظهر، فازداد عجبي واستغرابي، رحت أدور خلف الجهاز وأتفحص لأعرف من أين يأتون وكيف يدخلون في هذا الصندوق!

ومرة أخرى، أصيب عقلي الصغير بالصدمة، وهذه المرة استغرق فترة ليست بالقصيرة ليدرك حقيقة ما يحصل في هذا الجهاز.

يا لسذاجة العقل البشري، يا لسذاجته فعلا حين يشهد ما لم يحط به علما.

كان الحدث الثالث حين أخذتني أمّي أنا وإخوتي لمدينة الألعاب، وفيها شاهدت ذلك الدولاب الكبير (دولاب الهواء) وقتئذ أخذنا نلحّ على أمّي كي تسمح لنا بالصعود فيه .

صعدنا وكنا فرحين جدا، وما أن بدأ بالتحرك البطيء حتى بدأت رهبة الارتفاع تسري في داخلي فأغمضت عيني، وفجأة شعرت أن الدولاب توقف، فتحت عيني فرأيت العربة التي نحن فيها معلقة في أعلى الدولاب تمامًا، إذ إنّ عامل الدولاب أوقفه لينزِلَ ركّاب ويصعد آخرون.

حين شعرت بأنني على هذا الارتفاع الشاهق أخَذَت أتعس الكوابيس تتلاطم كالأمواج في مخيلتي، فتشبثت بالحديد بكلّ قوتي خشية السقوط من

السماء على أم رأسي.. ولم يهدّئ روعي إلا نظرات أمي الهادئة وسكونها، حيث خفف ذلك من رعبي.

بعدئذ تجرّأت ونظرت إلى الأسفل فرأيت مساحات واسعة من الأرض والناس والأشجار والسيارات.. الخ.

إنّها مساحة رؤية أوسع من شاشة التلفزيون وهي تجمع أعدادًا أكبر، وهذه المرة ليست صورًا ولا أفلامًا، إنهم واقعيون.

وهنا أثارني أمر آخر.. رأيت الناس صغارا وكأنهم أعواد ثقاب، ذهلت مما رأيت، هل أتوهم ما أرى أم أن ذلك حقيقة؟

كيف صغر الناس إلى هذا الحجم وما الذي حدث للدنيا؟

دار الدولاب، واقترب من الأرض شيئًا فشيئًا، فعاد الناس بالتدريج لحجمهم الطبيعي.. وهذا زاد استغرابي.. ما الذي يحصل؟هل أصبحت الدنيا مطاطية أم أنا أتخيل الأشياء؟

وهكذا رحت أركّز نظري على هذه الظاهرة، فرأيت إني لا أهلوس[1] بل أن الناس يصغرون ويكبرون.

وقتئذ، لم أربط المسألة بالارتفاع والانخفاض.. وكيف لي أن أعرف أنها مسالة طبيعية؟

بعد أن نزلنا من الدولاب، ذهب الجميع إلى الركض واللعب وأنا تمددت على ظهري ورحت أنظر إلى السماء فوقي.. وأمعن الفكر فيما رأيت..

1- الهلوسة : هي الإحساس في حالة اليقظة ، والوعي بمحسوس غير موجود يتميز بخواص المحسوسات الموجودة .

في تلك اللحظات مرّ سرب من الطيور محلّقًا في أعلى السماء، فقلت في نفسي.. لا شك أنني إذا ارتفعت ووصلت إلى تلك الطيور فسأراها كبيرة جدًّا ربما أكبر من جسمي..

لقد توهّمت أنّ الشيء إذا كان بعيدًا وصغيرًا فحين أقترب منه فسيتمطط ويصبح كبيرًا..

وقتئذ ظننت أنّني اكتشفت سرًّا كبيرًا.. وقد انشغلت لبعض الوقت بعدئذ بالتفكير في طريقة أرتفع بها لأرى كيف تبدو الطيور بالحجم الكبير..

أفلا يحق لي أنّ ابتسم كلما تذكرت تلك المواقف والأحداث؟

ولكن ومن جهة أخرى، أفلا يدعو ذلك للتأمل في بساطة العقل البشري وسذاجته؟

من يدري لربما أنّ الكثير من مشاهداتنا وقوانيننا لا تكون ساذجة وبسيطة كتلك التي كنت أتوهمها في صغري..

بتعبير آخر.. ألا يمكن أنْ تكون الإنسانية بكلّ ما وصلت له من نضج وتكنولوجيا وتقدم علمي وتطور تقني، عبارة عن طفل كبير يرتب ما يرى من أحداث بحسب ما يستوعب؟

لم لا؟لا تزال البقرة تُعبد بوصفها إلهًا، بل لا يزال البعض يعبد الجرذان وما هو أهون من ذلك.

لا تزال البشرية عبر تاريخها الطويل تتلمس الحقيقة وكلما أتت أمة لعنت التي قبلها..

بالنسبة لي.. أنا أعتقد بأنّ العقل الإنساني، وعلى الرغم من كلّ الاكتشافات والفلسفات والنظريات التي توصل لها لم يزد في معرفته للحقيقة عن طفل صغير يقف على أطراف أصابع قدميه لينظر من ثقب الباب محاولا اكتشاف المجهول.

العقول حين تلعب جر الحبل

« التصور غير التعقّل، فقد تستطيع أنْ تعقل شيئا ولا تستطيع أنّ تتصوره، لأن التعقّل على بديهيات أوليّة يأخذ العقل في ترتيبها وتركيبها، واستنباط بعضها من بعض، وبناء بعضها من بعض، فيصل إلى حكم عقلي قاطع قد لا يستطيع تصوره » [1]

الشيخ نديم الجسر

منذ أواخر القرن العشرين وتحديدا بعد ثورة الاتصالات والمعلومات، انتقلت ساحة الجدال من الغرف والصالونات المغلقة بين أهل الاختصاص سياسيين كانوا أم مثقفين أم رياضيين أم رجال دين.. الخ، إلى الفضاء الواسع المفتوح الذي بات له في كلّ منزل طبق لاقط (دش) يستقطب إشارته في زمن القنوات الفضائية، التي وجدت لها قبولا بين المشاهدين الذين لم يألفوا الاستماع المباشر للـ (الرأي والرأي المضاد) بطريقة تشبه المعركة بين ديكين حيث ينقر أحدهما الآخر، لتنتهي المعركة وكلاهما ينزف من كثرة جروحه، والرابح بينهما هو مقدم البرنامج كونه استقطب أكبر عدد من المشاهدين والسمعة والإعلانات.

بالتأكيد أنّ لكل ظاهرة في الحياة جوانبها الإيجابية والسلبية، وأهم

1- نديم الجسر ـ قصة الإيمان بين العلم والدين والفلسفة ـ ص 234 .

ايجابية برأيي في انتشار هذا النوع من المناظرات أنه يخلق في الوعي الجماهيري إمكانية الانفتاح لسماع الرأي الآخر مهما كان الموقف المسبق بالضد منه.. المهم أنه يسمعه.. إذ مرّ زمن ليس بالقصير وكلٌّ يغنّي على ليلاه، دون أنْ يعطي لنفسه فسحة الاستماع مجرد الاستماع لآراء الآخرين..

في زمن الرسالة المحمدية، كان المشركون إذا ما سمعوا أحد المسلمين يقرأ القرآن يأخذون بالتصفيق والصفير حوله حتى لا يستمعوا له أو يتركوا أحدا يسمعه.

ذكر القرطبي في تفسيره والطبري في تاريخه أنّ ابن مسعود قال: اجتمع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فقالوا: والله ما سمعت قريش القرآن يجهر به لها قط فمن رجل يسمعوه؟

فقال ابن مسعود: أنا.

قالوا: أما نخشاهم عليك إنما نريد رجلا له عشيرة يمنعونه إنْ أراده القوم بسوء.

فقال: دعوني فإنّ الله سيمنعني فغدا ابن مسعود حتى أتي المقام في الضحى وقريش في أنديتها حتى قام عند المقام ثم قرأ: (الرحمن علم القرآن) فتأملت قريش ما يقرأ فقالوا: إنه يقرأ بعض ما جاء به محمد فقاموا إليه فجعلوا يضربونه في وجهه.

فقال الصحابة: هذا ما خشينا عليك.

فقال: والله ما كان أعداء الله أهون عليّ منهم الآن ولئن شئتم أسمعتم القرآن عني، فقالوا لا حسبك لقد أسمعتهم ما يكرهون.

ويذكر أنّ الصحابي الجليل أبو ذر الغفاري توجّه للرسول صلى الله عليه وسلم فور إسلامه بسؤال: (يا رسول الله، بم تأمرني؟.

فأجابه الرسول: (ترجع إلى قومك حتى يبلغك أمري).

فقال أبو ذر: (والذي نفسي بيده لا أرجع حتى أصرخ بالإسلام في المسجد). هنالك دخل المسجد الحرام ونادى بأعلى صوته: (أشهد إلا إله إلا الله وأشهد أنّ محمدا رسول الله)، كانت هذه الصيحة أول صيحة تهز

قريشا، من رجل غريب ليس له في مكة نسب ولا حمى، فأحاط به الكافرون وضربوه حتى صرعوه، وأنقذه العباس عم النبي بالحيلة، فقد حذّر الكافرين من قبيلته إذا علمت، فقد تقطع عليهم طريق تجارتهم، لذا تركه المشركون، ولا يكاد يمضي يوم آخر حتى يرى أبو ذر امرأتين تطوفان بالصنمين (أساف ونائلة) وتدعوانهما، فيقف مسفّهًا مهينًا للصنمين، فتصرخ المرأتان، ويهرول الرجال إليهما، فيضربونه حتى يفقد وعيه.

في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾[1]، يشير سبحانه إلى جميع المغلقين الذين على قلوبهم أقفال فلا يفقهون أكثر مما نشؤوا عليه وتوارثوه من محيطهم العائلي أو الاجتماعي.

لهذا فإنّ الفرصة المفتوحة للاستماع إلى الرأيين باتت خيارًا مفتوحًا بعد أنْ توافرت لها الوسائل الإعلامية وأصبحت متاحة أمامها. هذه إيجابية هذه الظاهرة الأساسية من وجهة نظري.

مثل هذه الظاهرة انتشرت في الانترنت بشكل موسّع، فقد بات متاحًا

1- محمد : 24

للجميع مناقشة آراء الجميع مهما كانت المستويات العلمية والتخصصات متباينة.

ما أسمّيه حسنة هنا هو فتح باب النقاش في القضايا العلمية، فلم يعد حكرًا على نخبة النخبة كما كان في العهود السابقة، ولكن هناك ملحوظة يجب أن لا تُغفل هنا، وهي أنّ القضايا العلمية تتسم بحساسية من نوع خاص قد تختلف عن جميع القضايا السياسية والثقافية وحتى الدينية، ففي الوقت الذي يكون فيه الخلاف في القضايا السياسية والثقافية والاجتماعية عبارة عن اختلاف في وجهات والنظر، وفي القضايا الدينية اختلاف في الاجتهاد، فإنه في القضايا العلمية يبدو مغايرًا بعض الشيء.. وذلك لأنّ المفترض بالمسائل العلمية أنْ تكون ذات مسارات محدّدة كونها تتبع قوانين ونظريات قائمة على مسلّمات وأوليات متفق عليها.

ما سيظهره النموذج الذي سأذكره بعد قليل أنه لم يعد أحد من العلماء بمنأى عن النقد (هدّامًا كان أو بنّاءً) في أي مسألة من مسائل العلم.. الأمر الذي يؤكد أنّ الحقيقة أسمى من أنّ يكون لها ناطق رسمي يصرح للناس نيابة عنها، حتى ولو كان ذلك الناطق هو المؤسسة العلمية ممثلة بأكابر علماء المجتمع العلمي الأكاديمي.

سنة 1920 عندما اكتشف (هابل Hubble) أنّ المجرَّات البعيدة عن مجرَّتنا تتحرَّك بعيدًا عنَّا، وأنَّ المجرَّات الأكثر بُعْدًا هي الأكثر سرعةً في ابتعادها عنَّا، استنتج (هابل) نفسه أنّ الكون كله يجب أنْ يكون في حالة تمدُّد.

تمدُّد الكون، الذي ما زال مستمرًا حتى الآن، يعني، على وجه

الدقَّة، أنّ مجرَّاته جميعًا يرتد (يبتعد) بعضها عن بعض، وكأنَّها شظايا قنبلة تتناثر. ولكن المعنى الأهم هنا هو أنّ المجرات المتباعدة الآن كانت، في الماضي، متقاربة، أي أنّ حجم الكون كان أصغر.

وهكذا استنتج أو افترض كوزمولوجيون أنّ الكون قد جاء من (نقطة مفردة ـ Single Point).

والمفردة فيزيائيا هي: نقطة كانت مشتملة على كلّ ما في الكون مِنْ مادة، أي على كلّ ما فيه مِنْ كتلة و طاقة، وكانت غير محدود الكثافة، ولا حجم لها، أي حجمها كان صفرًا أو معدومًا، أي لا حجم له.

هنا الصدمة الكبيرة التي توقف عندها كثيرين فقالوا: لكَ أنْ تتخيَّل، إذا كنتَ قادرًا على مثل هذا التخيُّل، أنّ (النقطة المفرد) كانت مشتملة على الكثافة غير المحدودة والجاذبية الهائلة والحرارة المهولة، ومع ذلك هي نقطة بلا حجم!!.

كثافة ماذا، وجاذبية ماذا، وحرارة ماذا؟

كثافة وجاذبية وحرارة.. العدم؟

النقطة المفردة تشتمل على كلّ كتلة الكون وطاقته، ولكن يكفي أن تقول إنّ حجمه معدوم حتى تُحَوِّله (مِنْ وجود إلى عدم)، أو إلى كائن ميتافيزيقي، فكيف يمكنكَ إثبات وجوده، أو الاستدلال عليه، إذا ما سلَّمتَ بأنَّ حجمه معدوم؟

وأنتَ عندما تقول: إنّ في هذا (الشيء) المعدوم الحجم تكمن كلّ مادة

الكون فإنَّما تقول، في عبارة أخرى: أنّ كلّ مادة الكون قد فَنِيت أو تلاشت في العدم.

العقل المادي يستعصي عليه هذا الأمر، فهو قادر على أنْ يتصوّر شيئًا ما اشتمل في حجمه المتناهي في الصِغَر والضآلة على مقادير هائلة مِنَ المادة، أي مِنَ الكتلة والطاقة، فهذا تصور واقعي بحسب القائلين به، لكن إن كان ذلك الشيء معدوم الحجم فهذا ما لا يمكن تصوره أبدا، هكذا يقولون.

ويقولون أيضا: ما تلك الفيزياء التي تسمح قوانينها ومفاهيمها وتجاربها بالقول: إنّ جسمًا له كتلة يمكن أن نزيد كثافته مِنْ خلال تقليل حجمه أكثر فأكثر حتى يتحوَّل حجمه المتضائل إلى (حجم معدوم)؟

عندما نرى ونتأكَّد من أنّ مجرَّات الكون هي الآن في تباعد مستمر فإنّ المنطق يفرض علينا أن نستنتج أنّ هذه المجرَّات كانت في الماضي قريبة مِنْ بعضها بعضًا، ولكن ليس مِنَ المنطق في شيء أن نتطرف في هذا الاستنتاج، فنُعْلِن أنّ الكون قد جاء مِنْ تلك (النقطة المفردة) ذات الخواص الميتافيزيقية. ثمَّ ما القانون الفيزيائي الذي يمنعنا مِنْ أن ننظر إلى هذه (النقطة المفردة) على أنَّها كانت تعدل (الشمس)، أو (الأرض)، أو (البطيخة)، في حجمها؟

فلننتبه هنا، إنّ المنكرين يلجؤون إلى حسابات المنطق للتعامل مع هذه المسألة، ومن الطبيعي وفق المبادئ المنطقية المعروفة أن يكون الاستغراب والاستبعاد والاستنكار على هذه الشاكلة: لماذا هذا الإصرار الذي ليس مِنَ الفيزياء في شيء، على أن تكون (النقطة المفردة) معدومة الحجم؟وعلى أن نفهم (انفجارها) على أنَّه تلك (القوَّة الميتافيزيقية) التي خلقت المادة،

والزمان، والمكان، وكل شيء؟

ولعل آخرين يسألون بالمقابل: لماذا هذا الإصرار على اعتبار الفيزياء هي مجرد القوانين المعروفة المألوفة؟

ألا يمكن أن تكون تلك القوانين غير كاملة وأن كمالها بهذا المنظار الذي يقول به أصحاب نظرية الانفجار الكبير؟

ما الذي يرجح عدم صحة وجود النقطة المفردة وانفجارها بقوة أدت إلى خلق المادة والطاقة وكل شيء؟

إنّ ما يخشاه المادّيون من التصور الذي يقوم على أنه لا شيء غير

(العدم) كان قَبْلَ (الانفجار الكبير) هو أنّ ذلك يجر بالتتابع لافتراض وجود الخالق والأديان، لأن هذا الانفجار، الذي لا يشبهه انفجار، هو الذي خلق كلّ شيء.. خلق الزمان والفضاء والطاقة والجسيمات والمادة.. وما دام غير مسبوق بمادة فهو ناتج عن شيء غير مادي ميتافيزيقي وهو الإله.

هذا هو السرّ الذي يدفع الماديين للاعتراض على كلّ ما يُظنّ بأنه يتجاوز حدود الفيزياء التقليدية، وبتعبير آخر: كلّ ما كان ماديا هو فيزيائي، ولا شيء موجود غير المادة، فبالتالي لا وجود للفيزياء التي تتحدث عن الأشياء غير المادية أو التي يشتبه بأنها كانت في لحظة ما غير مادية مثل النقطة المفردة. وذلك لأن النقطة المفردة بحسب الكوزمولوجيون هي العدم الذي تحول إلى وجود ومادة بفضل الانفجار الكبير، أي: لقد انفجر العدم فخلق كونًا، وهم يعبّرون عن ذلك بطريقة أخرى فيقولون: (النقطة المفردة) التي وقع

فيها هذا الانفجار الكبير كانت غير مادية في ماهيتها وجوهرها، أي أنَّها كانت (نقطة روحية خالصة) فهذا الانفجار إنَّما هو القوَّة التي بفضلها انبثق الكون (المادي) مِنَ (الروح الخالصة)، أمَّا (الانسحاق الكبير) فهو القوَّة التي بفضلها سيفنى (الكون المادي) ويتلاشى في (الروح الخالصة) ذاتها! وكل هذا محال عندهم بل ومن سابع المستحيلات.

إنهم يستصعبون ذلك، لأنه غير قابل للتخيّل فيقولون: كثيرة هي الأفكار والتصوُّرات التي نَسَجها الخيال، ولكن، ثمَّة حقائق علمية يعجز الخيال ـ مهما كان خصبًا ـ عن الإتيان بمثلها. فهل تُصدِّق أنّ الكون بمجرَّاته التي تضمُّ كلّ منها مِنْ مائة مليار إلى ألف مليار نجم، كان محصورًا، قبل خمسة عشر مليار أو ستة عشر مليار سنة، ضمن حيِّز تَكْبُرُهُ نواة الذرَّة بمليارات المرَّات؟وأنَّه كان بالثقل ذاته الذي هو فيه اليوم؟

وماذا نسمِّي هذه النقطة المتناهية في الصِغَر إلى حدٍّ يصعب، بل يستحيل تخيُّله، والتي انفجرت قَبْلَ ستة عشر مليار سنة، فوُجِدَ الكون الذي نعيش فيه الآن؟هل نسميها (العدم)؟

يظهر لي أنّ العدم يرادف المستحيل عندهم، ولهذا فلا مجال لمجرد الاقتراب بالتفكير من احتمال كهذا. فهم لا يستغربون وبشدة من عدم تردد عالم كبير مثل (ستيفن هوكنغ) في القول إنّ الكون قد خُلِق مِنْ (لا شيء)؛ لأنّ الفهم الحديث لميكانيكا الكم يسمح بهذا. فيقولون: لقد قوَّض هوكنغ، بهذا الفهم الحديث لـ (ميكانيكا الكم)، أهم قانون اكتشفته الفيزياء، وهو قانون (استحالة خلق المادة مِنَ العدم). قد نجد صعوبة في تعريف (المادة)،

أمّا (العدم) فإنّ تعريفه هو المستحيل بعينه، فلا يمكننا، في أي حال، تعريف العدم، لماذا؟

لأنّ الإنسان لا يملك في رأسه مِن أفكارٍ سوى تلك المتعلقة بـ (العالم المادي)، فأنا أملكُ في رأسي فكرة عن القمر؛ لأنَّ هذا الجسم السماوي موجود في خارج فكري، وفي استقلال تام عنه. حتى الأفكار الخيالية، مثل فكرة (نهر مِنْ ذهب)، تُوجَد في رأسي؛ لأنّ عناصرها موجودة بالفعل، فثمّة نهر في الواقع، وثمّة ذهب. ويستطيع الخيال نسج علاقة (غير واقعية) بين أشياء موجودة في الواقع. أمّا الشيء الذي لا وجود له في العالم المادي فلا يمكنني أن أُكوِّن أي فكرة عنه.

ومع ذلك، تجرّأ هوكنغ ـ وهو فيزيائي لامع، وليس رجل دين ـ على القول إنّ الكون قد خُلِقَ مِنْ (لا شيء). والمثير للدهشة، حقًّا، أنّ هوكنغ يتزعّم ويقود جمهرة مِنَ العلماء إلى العوالم النظرية لـ (الثقوب السوداء). وكان هذا العالم قد أكَّد في كتابه (قصة موجَزة للزمان) أنّ (الذرَّة الأولى) التي صدر عنها كوننا عقب (الانفجار العظيم) هي (ثقب أسود)، وأنَّ (الثقب الأسود) يمتلك (حجما غير معدوم) وتعمل فيه القوانين ذاتها التي تعمل في عالمنا الحالي.

وفي هذا الحجم غير المعدوم لـ الثقب الأسود، الذي نشأ عنه كوننا، تركَّزت كتلة الكون وطاقته، فثِقَلُهُ هو ذاته ثِقَلُ الكون الذي نعيش فيه الآن، أي أنّ الفراغ، أو الفضاء، في داخل (الذرَّة الأولى) كاد ينعدم، ولا نقول انعدم. ولكن، لنرجع إلى (ستيفن وينبرغ) وكتيِّبه (الدقائق الثلاث الأولى

مِنْ عمر الكون) :

في البدء، أي قَبْلَ ستة عشر مليار سنة، كان (شيء) لا نعرف، وربّما لن نعرف أبدًا، عن ماهيته وخواصه وتركيبه أي شيء. وهذا (الشيء) كان متناهيًا في الصِغَر، فحجمه يقلُّ عن حجم نواة الذرّة بمليارات المرّات. ومع ذلك كان يشتمل على كلّ كتلة الكون الحالي وطاقته، فكان، بالتالي، شديد الكثافة والجاذبية. ومِنْ فرط جاذبيته ما كان في مقدور الضوء أو جسيمات الضوء (الفوتونات) الإفلات منه، أي أنَّه كان ـ بالضرورة ـ مظلمًا. ويُفترَض أنّ هذا الشيء ـ أو هذه الكتلة المركَّزة ذات الكثافة الهائلة ـ كان في غاية الحرارة.

لقد انفجرت الذرّة الأولى، وتناثرت شظاياها في كلّ اتِّجاه، وانطلقت كلّ شظية بسرعة خيالية. وهذه العملية تسمّى تمدُّد، أو انتشار، أو توسّع، الكون. ونحن، إلى يومنا هذا، نعيش في كون في حالة انفجار.

هذا (الشيء) سمّاه القس والكوزمولوجي البلجيكي (جورج لاميتر George Le Maitre) سنة 1927 (الذرَّة البدائية) وسمّاه فريدمان (الكتلة المادية شديدة الكثافة). وقد كان القسّ لاميتر هو أوّل مَنْ تحدّث عن انبثاق الكون مِنْ انفجار تلك الذرّة البدائية.

(ذرة لاميتر) اشتملت على كلّ مادة الكون، وكان حجمها يزيد كثيرًا على حجم الشمس قَبْلَ أن تنفجر وتتمزّق قِطَعًا صغيرة لا عدّ لها ولا حصر، وقد استمرت كلّ قطعة في الانقسام حتى ظهرت الذرّات في الكون.

ويقولون أيضًا: إنّ كلمة (قَبْل) قد تكون خاطئة، أو معدومة

المعنى؛ لأنّ قَبْل هي ظرف زمان؛ ولأنّ الزمان ذاته خُلِق عند وقوع الانفجار العظيم، أي أنّ ذلك الشيء الذي كان موجودًا قَبْل وقوع الانفجار كان شيئًا معدوم الزمان !

ومن أقوى تصريحات (ستيفن هاوكينغ) أنه أوضح أنّ الكون يمكن أن يُوْلَد حتى مِنْ دون تلك النقطة ذات الكثافة غير المحدودة.

ولهذا ـ وبحسب رأي الماديين- فإنه ينبغي لنا تخليص هذه النظرية الكوزمولوجية وتنقيتها مِنْ كثير مِنْ شوائب الميتافيزيقا (Metaphysics) فما دُمْنا في أرض الفيزياء، ولم نغادرها بَعْد إلى أرض الميتافيزيقا، لا يجوز لنا أنّ نحذو حذو (هوكنغ)، فنقول بخَلْق العالم مِنْ (لا شيء).

والتساؤل الذي أود أنّ أعرضه أنا هنا:

أليس غريبا أنّ علماء غير متدينين ترفع تجاههم أصابع الاتهام بكونهم تأثروا ـ بشكل أو بآخر ـ بالفلسفات القديمة إن لم نقل بالأساطير والخرافات، لا لشيء إلا لأنهم وخلال مسيرتهم العلمية التراكمية اقتربوا من الحافة الحرجة للعالم المادي فقالوا إنها خلقت من مصدر غير مادي ؟

هل القضايا المنطقية المتوارثة هي المعيار؟أم الأبحاث العلمية المجرّدة؟

هل ما نستطيع تصوّره أو تخيّله هو المقياس؟أم الاستنتاجات العلمية التي يمتنع على العقل تصورها؟

نعم، قد يعجز عقل الكثيرين عن تصور الخلق من العدم، ولكن هذا العجز ليس دليلا على الاستحالة، ومثال ذلك أنّ ما لا تعلم به لا يدل على عدم وجوده، فما لا تستطيع أنت تخيّله أو تصوّره أو أنك تعجز عنه ليس

دليلا على الاستحالة، فربما هناك من لا يحصل عنده العجز الذي يحصل لك. على أنه توجد هناك أدلة وبراهين تثبت عجز العقل عن تصورها مع أنه يؤكد صحتها منطقيًا، خاصة في مجال الحقائق الرياضية.

يُذْكر أنّ غاليليو حين كان جالسًا في منفاه، اكتشف في أحد الأيام أنّ هناك عددا من المربعات الكاملة 1، 4، 9، 16... مماثل لعدد الأرقام الطبيعية 1، 2، 3، 4.... هذا فاجأه وأربكه كثيرًا جدًّا، وقرر بهدوء وربما بحكمة أن لا يجعل من الأمر موضوعًا ذا شأن.

قد يبدو هذا مخالف لتصورنا، فعدد الأعداد الزوجية 2، 4، 6، 8، 10.. يبدو أقل من الأعداد الطبيعية 1، 2، 3، 4، 5،... ولكن هذا ليس صحيحًا فيمكن البرهنة على أنّ مجموعة الأعداد الزوجية مساوية في حجمها لمجموعة الأعداد الطبيعية، ويبدو هذا مخالفا لبديهية أنّ الكل (وهو مجموعة الأعداد الطبيعية) يجب أن يكون أكبر من الجزء (وهو مجموعة الأعداد الزوجية) ولكن هذا لا ينطبق على المجموعات اللانهائية حيث يمكن للجزء أن يساوي في حجمه الكل .

هل يمكنك تخيّل ذلك؟

وخذ مثلا آخر وهو (أحجية الورقة المقطعة) وخلاصتها : لو أنك أعطيت ورقة رقيقة بالغة الرقة، سمكها جزء من 100 جزء من المليمتر، وطُلب منك أن تقْطَعها إلى نصفين، ثم تقطع النصفين ثانية ليصبحا أربعة، ثم تقطع الأربعة لتصبح ثمانية، وهكذا إلى أن تكرر القطع والتضعيف (48) مرة، ثم سئلت: قبل أن تبدأ بالقطع وقبل أن تبدأ بالحساب، كم تتوقع أن

تصبح سماكة هذه الأوراق الرقيقة بعد قطعها 48 مرة؟لا أظنك تقول مهما بالغت في التقدير أنّ سمكها يزيد على متر واحد أو مترين أو ثلاثة. فإذا قيل لك إنّ سمكها سوف يزيد على (10 كم) لم تصدق، وأمّا إذا قيل لك إنك إذا راكمت الأوراق المقطعة تراكامًا مرصوصًا صاعدًا إلى السماء فإنه يلمس، أو يكاد يلمس القمر، الذي يبعد عن الأرض 384 ألف كم، نفرتَ، وحسبت القائل يسخر منك... وبعد أن تتحقق من ذلك بالحساب البسيط، فإنك لو أردت تصوره، تجد عقلك عاجزًا عن تصوره[1].

يحق لك ذلك، وهذا وَهَنٌ اعتيادي وعجز طبيعي في العقل، بمعنى أنّ العقول تعجز أحيانًا عن تصوّر حقائق كثيرة يقوم البرهان العقلي على صحتها.

يعبّر الشيخ نديم الجسر عن هذه الحقيقة بقوله: «التصوّر غير التعقل، فقد تستطيع أن تعقل شيئا ولا تستطيع أنّ تتصوره، لأن التعقل على بديهيات أولية يأخذ العقل في ترتيبها وتركيبها، واستنباط بعضها من بعض، وبناء بعضها من بعض، فيصل إلى حكم عقلي قاطع قد لا يستطيع تصوره»[2].

ولهذا فلا يصح أن تنفى نظرية الخلق من العدم العلمية، لعدم القدرة على تصورها أو تخيلها، لأنها وكما قال العلماء والفلاسفة معا ـ فضلا عن المتدينين ـ مما يمكن تعقله ولو كان العقل يستبعده أو يكلّ أو يعجز عن تصوره.

1- نديم الجسر ـ قصة الإيمان بين العلم والدين والفلسفة ـ ص 233 - 234 .
2 - المصدر نفسه ـ ص 234 .

وهكذا وخلال سجال قد يطول الدخول في تفاصيله يمكننا أن نتلمّس الغريب والمثير في العقل البشري، ذلك أنه وكما سبق أن نبّه عليه بجلاء السوفسطائيون يمتلك المقدرة على أن يدعم الرأي وضده أو نقيضه.. والفرق هنا أننا كنا نعتقد أنّ ذلك يمكن أن يكون في الجوانب الفلسفية فحسب، وقد تبيّن خطأ ذلك، إذ تبيّن أنّ لهذه الإمكانية متسعًا، على أنه ينبغي أن نعترف بأن هذه الخاصية لم يكن ليكون لها أثر لولا جرأة عدد من كبار العلماء الذين لم يترددوا بإعلان تفكيرهم غير المألوف الذي بات واضحًا بعد ما قرأنا هنا أنه من نمط التفكير خارج الصندوق.

اقفز لتخرج من شقوق الطين

« ومن يتهيب صعود الجبال يعش
أبد الدهر بين الحفر»

أبو القاسم الشابي

تحضرني الآن كلمات قالها الروائي البرازيلي (باولو كويليو) في برنامج عن حياته عرضته قناة الحرة الفضائية، خلاصته: (أنّ الإنسان جزء لا يتجزأ من المجتمع، وهو يكتسب من المجتمع الكثير من مقومات حياته، لذا يجب عليه أن يشارك المجتمع بكل ما يمتلك من قدرة على الإبداع والعطاء، ردا لدَيْنه عليه)، وهي كلمات مشجعة فعلا لمن تجاوز أسوار الأنا.. وأحسب نفسي ساعيا بهذا المسعى.

إنّ إلقاء الحجر في البركة الساكنة هو ما حاولت القيام به خلال تقلبي مع فكرة (التفكير خارج الصندوق) ولا أزعم أنّ حَجَري كان كبيرًا كفاية ليحدث الفارق الذي أطمح إليه في طريقة التفكير الإنساني، إلا أنه ليس بالصغر لدرجة أن لا يترك وراءه أي أثر في داخل القارئ ولو كان يسيرا، بغض النظر عن طبيعة ذلك الأثر، سواء أكان معارضًا أم موافقًا.

على أنني وخلال ما ذكرته هنا لم أخرج عن إطار النظر في القضايا العلمية، وبينما كنت أتأهب لأختم هذا الكتاب، تراءى لي باب آخر لم

أتطرق له لكونه لم يكن ضمن سياق وحدة الموضوع الذي سعيت لبلورته هنا، فأحببت أن أشير إليه بالذكر.

قد يرى البعض أنّ (التفكير خارج الصندوق) مقتصر على الرؤى العلمية والفكرية.. فحسب ـ كما كنت أظن أنا ـ ثم تبين لي أنّ هذا النمط من التفكير يتسع ليشمل دائرة أكبر من ذلك بكثير، وهي دائرة الحياة الإنسانية وخيارتها بمعناها العام.

إنّ الباحثين في هذه الدائرة يحاولون أن يعطوا الإجابات عن أسئلة مثل:

لماذا يوجد إنسان سعيد وآخر حزين؟

ولماذا يوجد إنسان فرح وثري وآخر بائس فقير؟

ولماذا هناك إنسان خائف وقلق وآخر مليء بالثقة والإيمان؟

ولماذا هناك إنسان يمتلك منزلا فخما وجميلا، بينما إنسان آخر يكاد يظل على قيد الحياة في حي مزدحم؟

ولماذا يحقق إنسان نجاحًا باهرًا وإنسان آخر يفشل فشلا ذريعًا؟

ولماذا هناك إنسان خطيب مفوّه وله شعبية طاغية وإنسان متوسط الحال ولا يسمع عنه أحد؟

ولماذا يوجد إنسان عبقري في عمله أو مهنته وإنسان آخر يكدح طوال حياته دون أن يفعل أو يحقق شيئا يساوي ما بذله من جهد ووقت؟

لماذا يشفى إنسان من مرض عضال وإنسان لا يشفى منه؟

لماذا يعاني العديد من الأشخاص الصالحين والمتدينين من عذاب روحي

وجسدي لا حد له؟

ولماذا يحقق العديد من الأشخاص الطالحين غير المتدينين نجاحًا وازدهارًا ويتمتعون بصحة مشرقة؟

ولماذا تحقق امرأة نجاحًا في زواجها وأخرى تشعر بالتعاسة وخيبة الأمل؟

وما إلى ذلك من أسئلة مشابهة أو قريبة في المعنى[1].

لقد وجِدَ أنّ جميع المتميزين كانت لهم طرقهم الخاصة في التفكير خارج الصندوق، في الوقت الذي قَبَع فيه أصحاب التفكير الاعتيادي في قعره الضيق، فكان لهؤلاء ما أرادوا من السعة وكان لأولئك ما لم يريدوا من الضنك.

في تصوري أنّ من يقضي أكثر من ثلثي عمره في الشكوى والتشكي مما لا يملك، ويذرف الدموع على الأحلام التي تتلاشى واحدا تلو الآخر، هو بحاجة فعلية إلى أن يقفز من شقوق الطين التي حشر نفسه فيها حشرًا عندما سلّم لما يعلَم واستسلم لما يُعلّم، فلم يتجرأ على إعادة النظر بمسلّماته التي لم يجنِ من ورائها إلاّ الخيبة تلو الخيبة.

وأنا ـ استكمالا لما بدأت ـ أحببت أن أطرق هذا الباب لاستمع معك إلى إجابات عن تلك الأسئلة، ممن تمكنوا بالفعل من تغيير مسار حياتهم بشكل عجيب من اللاشيء إلى كلّ شيء.

1- د جوزيف ميرفي ـ قوة عقلك الباطن ـ ص 1 - 2 .

ولكني كنت قد قرأت نصيحة لصاحب تجربة قال فيها إن الكتاب المعتدل هو ما تتراوح صفحاته بين (140 - 160) صفحة وفق دراسة مختصة بهذا الشأن، فقررت أن التقي معك في الكتاب القادم لنقرأ معًا طرق التفكير خارج الصندوق التي تعرفك كيفية القفز للخروج من شقوق الطين.

فإلى الملتقى في : القافزون من شقوق الطين.

المراجع والمصادر

ـ القرآن الكريم

التفاسير :

ـ الجلالين ـ تفسير القرآن ـ المكتبة الشاملة على النت .

ـ الإمام الرازي ـ تفسير مفاتيح الغيب ـ المكتبة الشاملة على النت.

ـ الشيخ سهل التستري ـ تفسير القرآن العظيم ـ عني بتصحيحه السيد محمد بدر الدين ـ مطبعة السعادة ـ مصر ـ ط1 ـ 1908 .

ـ الشوكاني ـ تفسير فتح القدير ـ المكتبة الشاملة على النت .

ـ الإمام الطبري ـ تفسير جامع البيان في تأويل القرآن ـ المحقق احمد محمد شاكر ـ مؤسسة الرسالة ـ ط1 ـ 2000 .

ـ ابن عجيبة ـ البحر المديد في تفسير القرآن المجيد ـ المكتبة الشاملة على النت.

المطبوعة :

ـ د. أسامة نعمان ـ أفكار علمية ـ بغداد .

ـ باول ديفز ـ كتاب القوة العظمى ـ وزارة الثقافة والإعلام ـ بغداد .

ـ التجربة الصوفية طريق معرفة ـ علي الحضرمي ـ دراسات ـ ملف pdf ـ أنترنت .

ـ توماس كون ـ بنية الثورات العلمية ـ ترجمة شوقي جلال ـ عالم المعرفة ـ المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ـ 1992 .

ـ د . جوزيف ميرفي ـ قوة عقلك الباطن ـ مكتبة جرير.

ـ دونالد أو كليفتون ـ أطلق العنان لمقدراتك ـ مكتبة جرير .

ـ السراج الطوسي ـ كتاب اللمع في التصوف ـ اعتنى بنسخه وتصحيحه رنولد الن نيكلسون ـ مطبعة بريل في مدينة ليدن ـ 1914.

- السهروردي ـ عوارف المعارف، حاشية احياء علوم الدين للغزالي ـ صحح بإشراف لشيخ عبد العزيز عز الدين السيروان ـ دار القلم ـ بيروت .
- عاطف جودة نصر ـ شعر ابن الفارض ـ ص297، وكذلك : عبد الخالق محمود ـ شعر ابن الفارض في ضوء النقد الدبي الحديث.
- عبد العزيز الديريني ـ طهارة القلوب ـ طهارة القلوب والخضوع لعلام الغيوب ـ القاهرة ـ 1296هـ .
- عبد الوهاب الشعراني ـ لطائف المنن في مناقب أبي العباس المرسي وشيخه أبي الحسن ـ عبد الحميد أحمد حنفي ـ مصر.
- العلم في منظوره الجديد ـ روبرت م . أغروس، جورج ن . ستانسيو ـ ترجمة دكتور كمال خلايلي ـ سلسلة عالم المعرفة ـ 1989 .
- علي فهمي خشيم ـ أحمد زروق والزروقية ـ دار مكتبة الفكر ـ طرابلس ـ الطبعة الاولى ـ 1395 هـ ـ 1975 م .
- فيرتجوف كابرا ـ التصوف الشرقي والفيزياء الحديثة ـ ترجمة عدنان حسن ـ دار الحوار ـ سوريا ـ ط1 ـ 2006 .
- الشيخ محمد الكسنزان ـ الطريقة العلية القادرية الكسنزانية ـ اليمن ـ 1995 .
- نديم الجسر ـ قصة الايمان بين العلم والدين والفلسفة ـ طرابلس ـ ليبيا .
- الدكتور هاني خليل رزق ـ موجز تاريخ الكون من الانفجار الاعظم الى الاستنساخ البشري ـ دار الفكر ـ دمشق ـ ط1 ـ 2003 .

الأنترنت :

- آنشتاين ـ المجلة الفيزيائية هلى النت ـ 1916،17.
- الفيزياء ونظرية المعرفة (الابستمولوجيا) ـ د محمد البغدادي ـ موقع قاسيون على النت .

ـ مقال بعنوان : (الشك المنهجي ونظرية الأفكار) ـ محمد على ثابت ـ موقع كتابات على النت .
ـ مقال بعنوان : (كذبت قناة الجزيرة العلم يثبت كلّ يوم صحة نظرية دارون) ـ على النت .
ـ موسوعة ويكيبديا على النت.
ـ موقع هلوسات على النت .